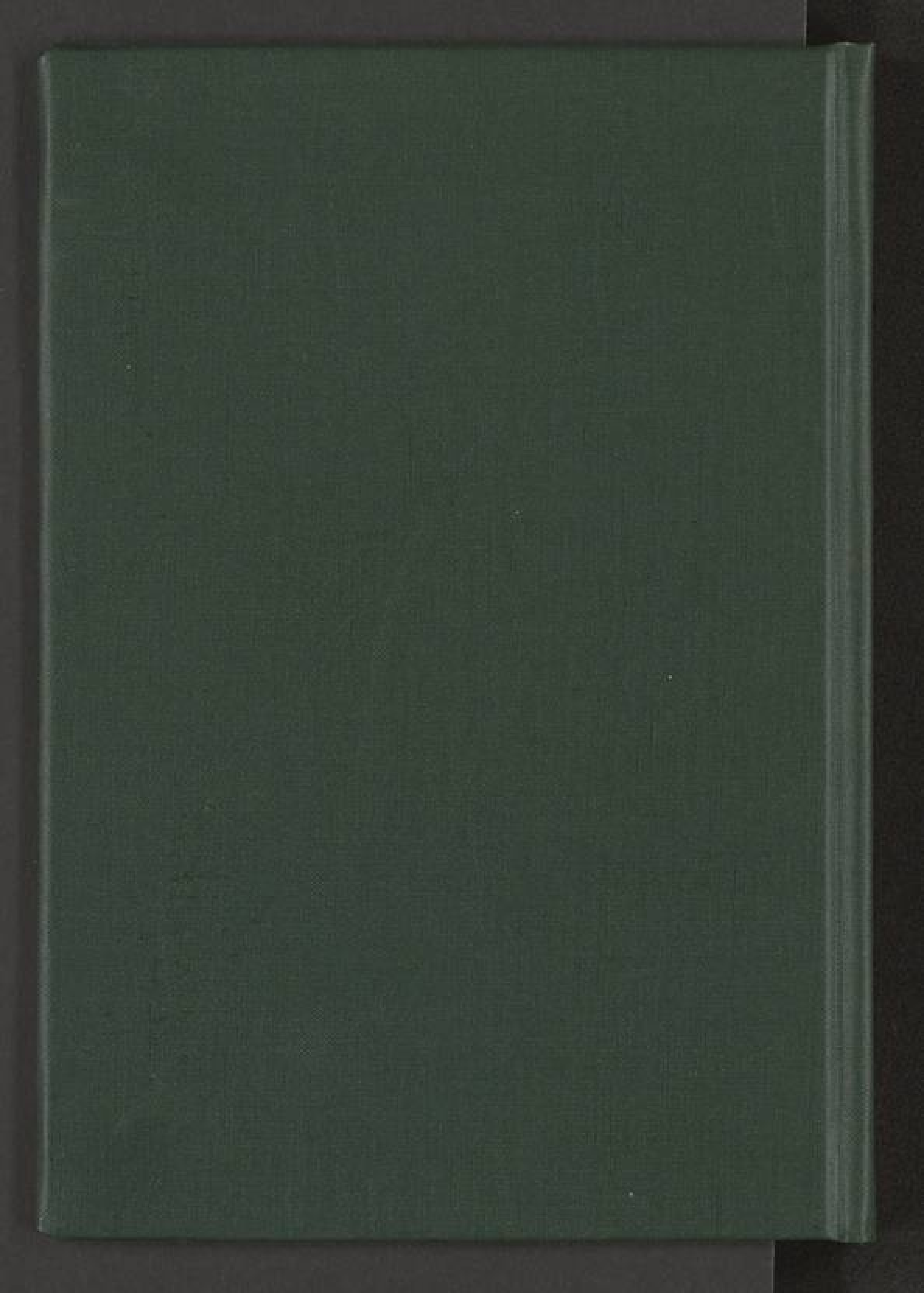
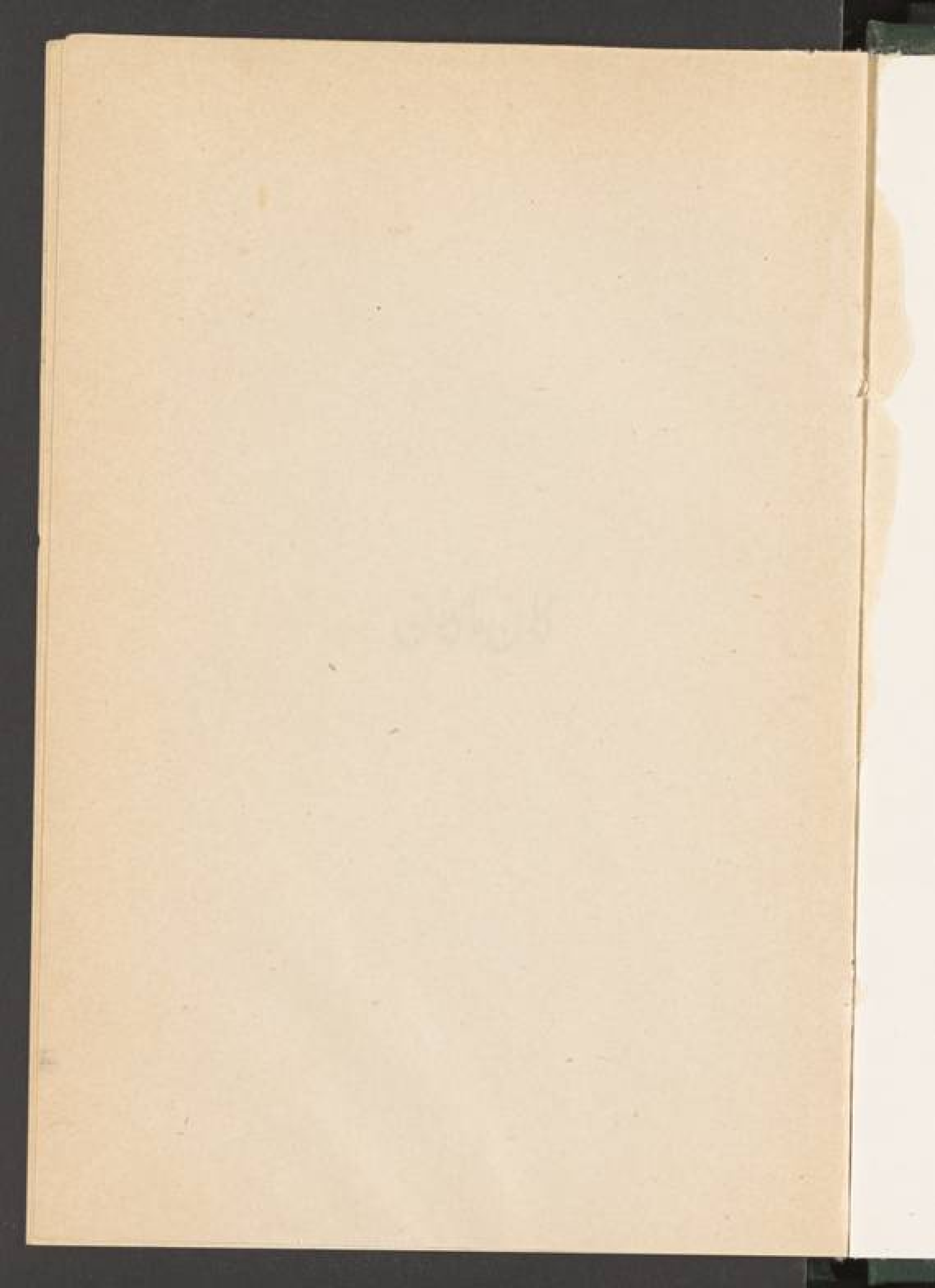
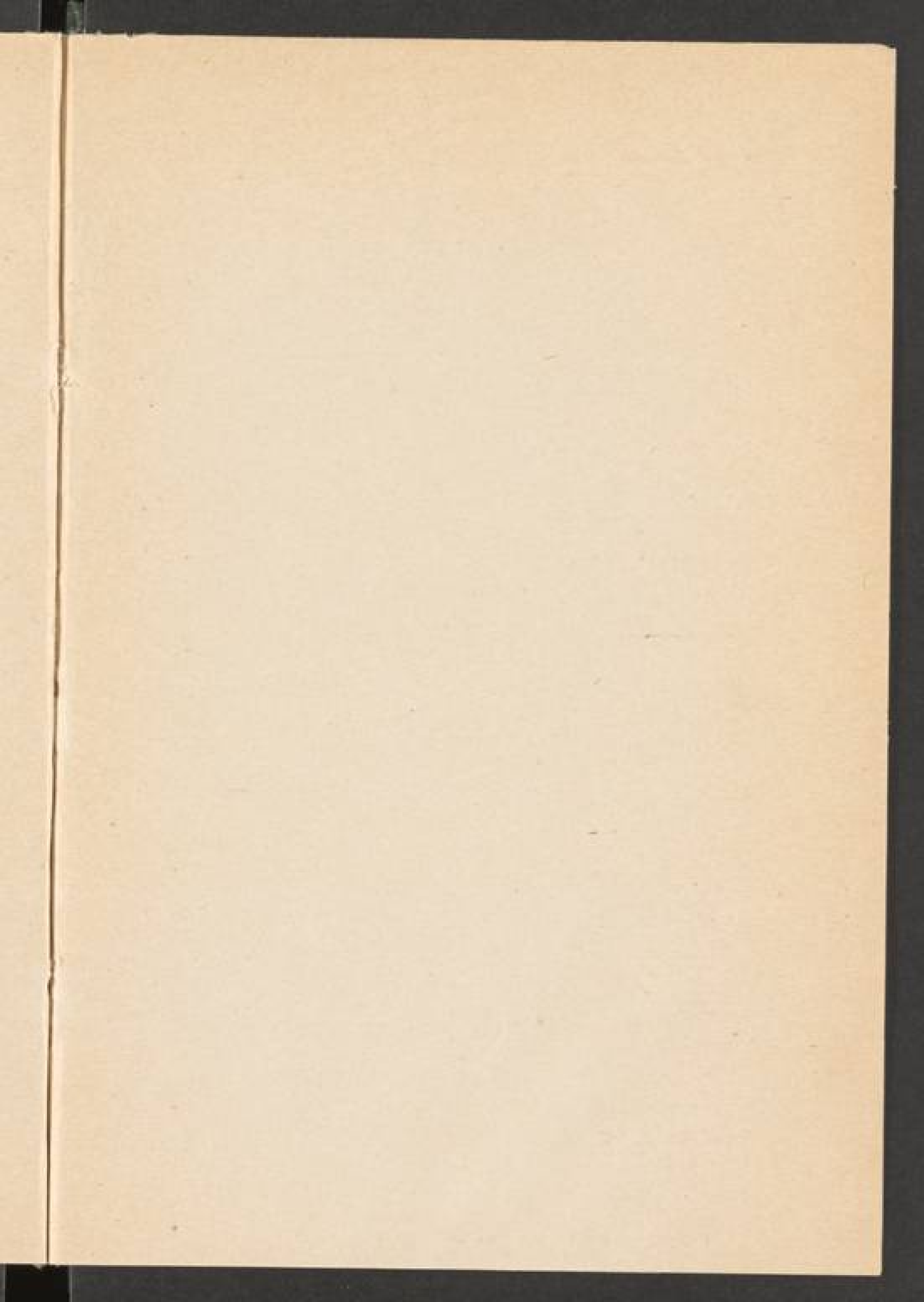


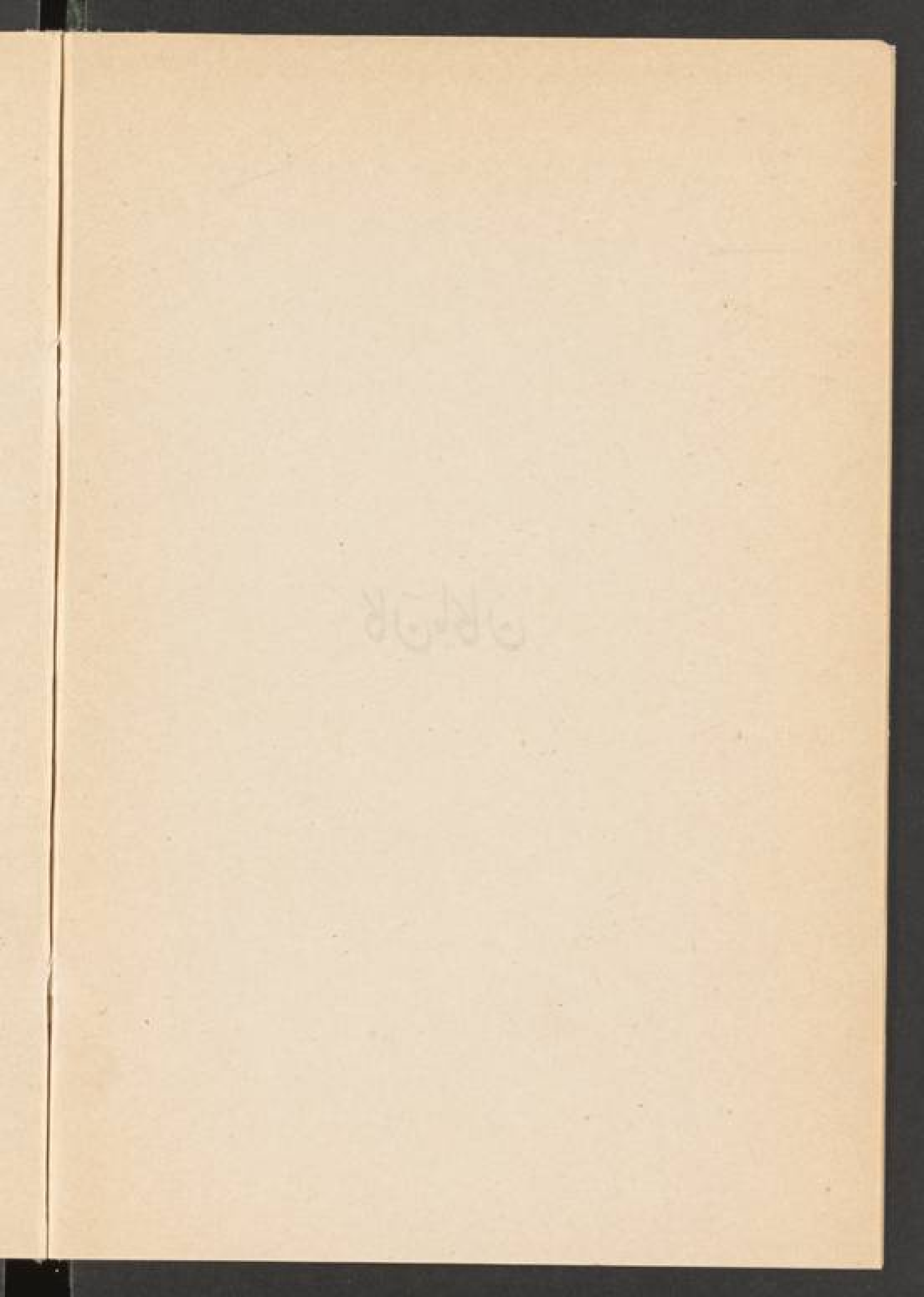








كانَ ماكانْ



ميخائيل نعيمه

كان ما كان

الطبعة الثانية



مكتبة صادر
بيروت

مطبعة المناهل : ١٠ — ١٩٤٩

ساعة الكوكو

اثمن الهبات هبة تجهل واهبها .

في حقيبتي رسالة هي عندي انفس ما وهبته الناس حتى اليوم . تسلمتها في اوائل ايار سنة ١٩٢٢ فتلوتها ولم اقع فيها على اقل اثر استدل منه على مرسلها ومحل اقامته . وجل ما اهتديت اليه من مضمونها وطابع البريد على غلافها انها مرسلة من قرية لبنانية صغيرة .

احتفظت بهذه الرسالة منذ تسلمتها حتى اليوم املاً بان يعود كاتبها ويذكرني ولو بسطر او سطرين . ويطلعني على اسمه وعنوانه فأشكر له في الاقل تحفته واستأذنه بعرضها على الناس اذ حرام ان تدفن بين اوراق قديمة مهملة .

الا انه ما كان ليحقق املي . لذاك آخذ المسؤولية على نفسي ، وانشر اليوم هذه الرسالة الغريبة ، حتى اذا ما كان كاتبها حاملاً للآن قسطه من هموم هذه الحياة ، واتفق ان وقعت عيناه على هذه السطور فليقرأ بينها شكر قلب سيظل يذكره بالخير حتى آخر نبضة . وان تكن روحه قد اجتازت الهوّة فلها من روحي الف رحمة ورحمة .

والى القارىء الرسالة، بعد حذف التحيات والسلامات وكل الخصوصيات :

«... مات امس في هذه القرية رجل عظيم . وقد دفنّاه اليوم . وها انا اكتب اليك وعلى يدي آثار من تراب الرمس .

« دفنّاه نحن رجال القرية ونسوتها ، من اكبرنا الى اصغرنا، ما خلا كاهنينا – كاهن الكنيسة الشرقية وكاهن الكنيسة الغربية . لان كلاً منهما ادعاه من رعيته وليس منهما من تمكن من اثبات دعواه، اذ كان الفقيد يتردد في حياته على الكنيستين بالسواء . لكنه لم يجاهر قط بمذهب ، ولا تناول الاسرار الالهية في كنيسة من الكنيستين . فحسماً للخلاف دفنّاه لا كهنة ، ولا مباخر ، ولا شموع . وذاك اول مأتم شهدته في حياتي من نوعه .

« ان انا قلت لك ان كل حفنة من تراب الرمس الذي ساعدت اليوم في حفره وردمته بيدي مع الرادمين عادت اليه مروّاة بالدموع – دموعي ودموع كل من حضر –، ان قلت لك ذلك فصدقني لانني لست كاتباً ولا شاعراً .

« ان العظمة التي ترونها انتم معشر الكتّاب والشعراء، ان في انفسكم او في الناس ، اكثر ما تكون قرقعة عظام في الدست . اما القدر الملآنة غذاء طيباً ، والتي تغلي على مهلها ،

فلا تسمعونها ولا ترون ما فيها . فمن صنّف كتاباً رائجاً او نظم ديواناً رائجاً – عظيم . ومن اخترع ملهاة جديدة للبشر – عظيم . ومن صور صورة جميلة – عظيم . ومن ربح معركة حربية – عظيم . هذه العظمة ترونها وتسمعونها لانها قرقاعة . اما العظمة الساكتة فآذانكم دونها صماء ، وابصاركم عنها كليلة وعمياء . وماذا عساكم تسمعون اذا كنتم لا تسمعون صوت العظمة الساكنة ؟ وماذا عساكم تبصرون اذا كنتم لا تبصرون وجه العظمة المتسترة ؟

« ان من دفناه اليوم لم يصنف كتاباً قط ، ولا نظم قصيدة ، ولا نحت تمثالاً ، ولا اكتشف علاجاً ، ولا اخترع مهلكة جديدة للبشر . وكان مع ذلك عظيماً امس ، وهو عظيم اليوم ، وسيظل عظيماً غداً .

« ولماذا ؟ لانه اضاع نفسه ثم وجدها . لانه تعارك مع ساعة الكوكو فانتصر عليها . وحتى اليوم لم اسمع بواحد منكم تغلب على ساعة الكوكو . ومتى أضعت نفسك يا سيدي ثم وجدتها ، متى انتصرت على ساعة الكوكو اكون اول الشاهدين بعظمتك .

« جاءنا هذا الرجل منذ سنتين وهو لا يعرف القرية ولا احداً فيها ، ولا احد في القرية يعرفه . وليس من يعرفه في القرية حتى اليوم الا انا . فقد باح لي بسره قبل موته . وها انا ابوح لك به ، ولست جاهلاً الى حد ان اسألك حفظ السر .

لاني اعرفكم معشر الكتّاب والشعراء لا تحفظون سراً ولا ترعون عهداً . فكلكم نمام فضاح . اذا لم يفضح السر بلسانه فضحه بقلمه ، وان لم يكن له ما يفضح فضح اسرار نفسه .

« انت لبناني وتعرف اخلاق القرويين في لبنان ، لا سيما في قرية صغيرة كهذه . اذا طرقهم غريب لا يوصدون ابوابهم في وجهه . ولا يطعمونه اللقمة بيمينهم ويسارهم ممدودة الى كيسه . لكنهم يكثرون السؤال شأن القرويين في كل مكان اذا حل بهم غريب : مَــن ؟ ومِن اين ؟ ولماذا ؟ ونحوها من الاسئلة .

« ولم تكن الا عشية وضحاها حتى شاع في القرية ان الزائر الغريب رجل اميركي اسمه « طمسن » . وانه ولد في لبنان وقضى فيه صباه وقسماً من شبابه . ثم عاد الى بلاده وراء البحار حيث اشتغل عشرين عاماً فانتهكت قواه . وذكر لبنان فأحب ان يرجع اليه ليسترد همته ونشاطه . وقد اختار قريتنا لطيب مناخها وجمال موقعها .

« رأيت الرجل في اليوم الثاني بعد قدومه الى القرية . فوجدت في وداعة عينيه جاذباً ، وفي هيبة طلعته دافعاً . كأن عينيه كانتا تقولان لي : ادنُ مني يا اخي . اما هيبته فكانت تقول : لا تلمسني ! فدنوت منه ولم ألمسه ، وهكذا بقيت قريباً

منه بعيداً عنه ، الى ان كان يومٌ لمسته فيه ، بل عانقته حتى كأنني واياه واحد . ذاك يوم فتح لي صدره وقال : ها أنذا !

« ألست ترى ان الناس يسيرون في الحياة اسراراً ؟ فالانسان يقترب من الانسان بقدر ما يقترب المتشابهان في الظاهر : هذا سر وذاك سر . وهنا تنتهي القرابة ويبتعد الانسان عن الانسان بقدر ما يجهد كلٌ في كتمان سره . اما ساعة يكشف الانسان للانسان سره — ساعتئذ تنصرم فواصل الزمان ، وتتدانى مسافاتُ المكان ، ويلتقي الاخ اخاه . وسيأتيك الحديث .

« هل فكرت في حياتك ان الفطرة حقيقة صافية ، والمدنية رياء موشى ؟ اعتبر ذلك في ان ابناء الفطرة يسعون ابداً الى تطبيق الاسم على المسمى . فحيثما شعروا بتنافر بين الاثنين لجأوا الى الالقاب والكنيات او ما يدعونه الاسماء « الملبقة » .

« مستر طمسن . مستر .. وطمسن .. كلمتان لا تؤديان معنى قط لابناء قرية لبنانية . وعلاوة على ذلك لا « تدوران » على ألسنتهم . ولا تعبّران عن شيء من الخلال التي اكتشفوها في الرجل . لذلك كان من حسن ذوقهم وصدق فطرتهم ان « لبقوا » لمستر طمسن كنية « بومعروف » .

« بومعروف، وهل تدري ما يعنيه القروي اللبناني بكلمة : « المعروف » ؟ خذ كل فضيلة عرفها الناس من آدم حتى اليوم: المحبة ، الرفق ، الشهامة ، الصدق ، العدل ، المسالمة ، اللطف ، الدعة ، نكران الذات . خذ هذه الفضائل وامزجها يكن لك من مزيجها « المعروف » . واذا اجمعت كلمة اهل قرية لبنانية على تلقيب رجل بأبي المعروف ، فاعتبر ذلك اصدق شاهد على ان الرجل فلتة من فلتات الزمان .

« ما هي الا اسابيع قليلة حتى اصبح بومعروف عشيق صغارنا ، وحبيب كبارنا ، ورفيقنا في كل افراحنا واتراحنا ، وشريكنا في كل اعمالنا ، وقاضينا في كل مشاكلنا ، ومرجعنا في كل متعبة وشدة . وقلما كان يمر بنا يوم لا نسمع فيه بمأثرة جديدة له يصنعها في السر فتخبر عنها محبتنا في العلانية . ولو جئت لاسرد لك مآثره لما استطعت . غير اني اذكر منها واحدة ، وهي انه منذ حل بومعروف هذه القرية لم يهاجر من ابنائها ولا واحد . وكنا قبل ذلك لا نستقبل مهاجراً عائداً حتى نودع عشرة نازحين . فتأمل !

« اسألك ان تتأمل لانك لو تأملت لرأيت في ذلك عجيبة.

«وكيف صنع بومعروف هذه العجيبة؟ بطريقة هي البساطة بعينها . والبساطة البسيطة هي اجمل ما في الكون واندر ما

في الناس . فهي عجيبة . لقد جعلنا بومعروف نحب قريتنا ، نحب تربتها ، وماءها ، وهواءها ، وصخورها ، ووعورها ، وسهولها ، واوديتها ، وجبالها ، لانه هو احبها بكل قواه . فانتقلت محبته الينا بالعدوى . جعلنا بومعروف نشعر ونفهم ونؤمن ان لا حياة لنا بدون الارض ، وان الارض لا تعطف الا على من يعطف عليها . فاذا لم تعطف علينا ارضنا فليس في المشارق والمغارب بقعة غيرها تعطف علينا. اذ ان من لا يعرف كيف يستعطف ارضه لا يعرف كيف يستعطف سواها . ومن فقد عطف الارض فقد الحياة ، فكان شريداً طريداً اينما حل وان جمع من المال جبالاً .

« وأذكر من اقوال بومعروف الشيء الكثير ، وليتني اذكره كما فاه به . واليك بعضه مشوهاً بلغتي العوجاء :

« من الارض لباسك، ومن الارض غذاؤك ، ومن الارض مأواك . فما اجهلك تحتال على الحياة لتحصل على لباسك وغذائك ومأواك من غير ان تلمس الارض ! »

« لا بد للانسان في تحصيل رزقه من شريك ، فطوبى لمن اتخذ الارض شريكه لانه ينام ملء اجفانه ! »

« التجارة حيلة لصيد المال ، والمال حيلة لسرقة اثمار الارض من شركاء الارض، لكنها حيلة تقتل محتاليها . »

« اذا دفنتَ في الارض حبة فاعطتك عشر حبات فاين هو الرجل الذي يجسر ان يدل عليك باصبعه قائلا : « هوذا سارق » ؟ اما اذا انفقت فلساً فعاد اليك فلسين فكثيرة هي الاصابع التي تشير اليك ، وان لم ترها . وكثيرة هي الالسنة التي تقول : هوذا سارق، وان لم تسمعها. غير ان الحياة ترى تلك الاصابع وتسمع تلك الالسنة . والحياة تذكر ما ترى وتحفظ ما تسمع . »

« ان في التراب لعطراً لا تعرفه حوانيت العطارين . »

« الارض هي الفاتحة في مصحف الوجود. مَن قرأها كان في غنى عن كل ما حوته الكتب . »

« السعيد من سعد حيث كان. والتاعس من راح يبحث عن السعادة في مكان آخر . »

«احب الي روح نظيفة في جسم قذر من روح قذرة في جسم نظيف . واحب الي من الاثنين روح نظيفة في جسم نظيف . الارض روح طاهر في جسم طاهر، فالصقوها بارواحكم واجسامكم ان شئتم ان تكونوا من الطاهرين . »

« الناس عبيد الناس . انا عبد من في يده قضاء حاجتي . ومن في يده قضاء حاجتي عبد من في يده قضاء حاجته . فعبدهم سيد وسيدهم عبد . وهل اظلم من عبد اذا ساد او احقر من سيد اذا استُعبد ؟ اما الذين قضاء حاجتهم في حوزة الارض

فهؤلاء احرار لان الارض لا تُساد ولا تستعبد، فهي ميزان العدل الالهي . »

« الارض لا تخجل من ان تُنبت الوردة والشوكة والقمحة والزوانة ، لان كل ما في جوفها طاهر . اما الناس فيستحيون من اشواكهم وزوانهم ، فيحاولون بكل قدرتهم خنقها . لذاك تخنقهم . تعلموا الصدق من الارض . »

« رأيت رجلاً ينخل التراب فيحتفظ منه بذرات صفراء براقة ويطرح ما بقي . ورأيت آخر يبذر فيما طرحه الاول من التراب حبات من الحنطة . وبعد عام كانت مجاعة في الارض فرأيت الرجل الاول راكعاً امام الثاني وفي يده نقود صفراء براقة وسمعته يقول : « ألا بعتني صاعاً من الحنطة ولو بعشرين ديناراً ؟ » وسمعت صاحب الحنطة يقول: «لقد رضيت بِغلّتي من التراب فكن راضياً بغلّتك . »

« ليتني دوّنت كل كلمة سمعتها من بو معروف، فكلماته كانت مواعظ . وكان ينطق بها دون ما تصنع او تكلف ، ليس من على المنابر ولا في المجالس الحافلة ، بل في الحقول والكروم ، ويده قابضة على المحراث او المقصل او الرفش او المعول ، لانه ، كما قلت لك ، صار منا وفينا . يعمل اعمالنا ، ويلبس لباسنا ، ويأكل ما نأكل ، ويشرب ما نشرب . وكم كنت احب

منظره في العباءة و « الشروال » و « المادة » ! كلما صورته امامي فاضت عيناي بالدموع . وها انا ابكي الآن وقد سقطت دمعة على هذه الورقة . فيا لضياعها ، لانك لن تراها ، ولن تشعر بها ، ولن تفهم المحبة التي فيها . كما اني اخشى انك لن تفهم ما سردته لك من اقوال بومعروف لانك لا تعرف دموع المحبة . ولا تفهم لغة الارض . وبومعروف كان يفهم لغة الارض ويعرف دموع المحبة .

*

« بومعروف ، بومعروف ! لقد مات بومعروف ودفناه ، لكنه ما برح حياً في حقولنا وكرومنا وبيوتنا وقلوبنا . كلها يحدث عنه . وافصحها لساناً صخرة شاهقة صماء ندعوها في هذه الجهات «عمود السحاب» . فقد كنا نتسلقها معاً انا وبومعروف ونستلقي على منبسط صغير في اعلاها ، ومن هناك نرسل بصرينا في الفضاء الازرق ونفتح صدرينا للنسيم ، او نتمدد على بطنينا فنطل على وادٍ عميق فيه غابات من الحور والبلوط والسنديان وجدول ينحدر من صدر الجبل فيكر مهللاً بين الصخور والاشجار .

« وكنا متمددين على ظهر تلك الصخرة منذ اسبوعين ، ساندين رأسينا بايدينا ، ومرفقانا على الصخرة ، وبصرانا متغلغلان

في الوادي، وافكارنا تائهة مع انفاس الربيع. وكان النهار احداً وقد تجاوز عصره، ومن الوادي قد ارتفعت زقزقة الالوف من الخلائق المجنحة . ومر بنا غرابان ونعقا ، فالتفت الي بومعروف وقال :

« – ما اجمل الغراب يتكلم لغة الغراب ولا يحسد العندليب على صوته ! وما اجمل العندليب يتكلم لغة العندليب ولا يحسد الغراب على قوّته ! والغراب والعندليب ولدا الطبيعة وهي تحبهما بالسواء . ليس الامر كذلك بين الناس . فكم من غراب بشري يشقى لان ليس له صوت العندليب ! وكم من عندليب بشري يتعس لان ليس له قوة الغراب !

« وسكت فعدنا الى السكوت ، وظللنا فترة طويلة ساكتين .

« ونحن كذلك ، واذا برفيقي يستوي فجأة جالساً ويشد بكفيه على صدغيه وقد اغمض عينيه كأن به صرعاً قوياً . فنظرت الى وجهه واذا به كالزعفران . فدنوت منه ويداي ترتجفان رعبة وركبتاي تصطكان ، وقبل ان افتح فمي اشار لي بيده ان اعود الى مكاني وقال :

« – لا بأس ، لا بأس ، مسألة عرضية !

« فعدنا الى ما كنا فيه ، وعاد الى وجه بومعروف لونه

وابتسامته ، غير اني ما كدت انسى غرابة ما حدث حتى انتفض جليسي ثانية وهب واقفاً وشدني بعنف من يدي قائلاً : « لنذهب ، لنذهب من هنا ! » فامتثلت كالولد الصغير ، الا اني وقفت هنيهة كالمشلول . فرقّ بومعروف لحالتي ، والتفت الي وفي عينيه كآبة وحنان وسألني بلطف :

« – أوَما سمعت ؟ أوَما سمعت ؟

« فاخذتني الدهشة ، حتى خيل الي ان رفيقي أصيب بمس في عقله ، لانني ما ذكرت ان سمعت صوتاً غريباً ، او رأيت شيئاً خارقاً .

« – اسمع ، اسمع ! – قال لي ذلك بومعروف واضعاً كفه على كتفي ، فتكهربت للحال بانفعالاته النفسية ووقفت اصغي الى كل حركة وصوت علني اسمع ما يفسر لي تصرف رفيقي الغريب. فلم اسمع سوى جلبة الطيور وحفيف الاوراق وخرير الماء في الوادي .

« – اسمع ، اسمع ! اسمعت الآن ؟ اسمعت ؟ ؟ » وهزني بومعروف من كتفي هزة شعرت معها كأن « عمود السحاب » اهتز تحت قدمي . ووقفت مبهوتاً احاول ان اذكر آخر صوت طرق مسمعي فذكرته . غير اني لم اجد فيه ولا شبه تفسير لذلك المشهد المحيّر ، فقلت :

« – نعم سمعت !

« قال : وما سمعت ؟

« قلت : كوكو . كوكو ! وهو صوت طائر لا يندر ان يزور هذه الانحاء في الربيع ونحن نسميه « طير الكوكو ».

« في تلك اللحظة تبدل وجه بومعروف عشرين شكلاً ، وتوالت هذه الاشكال امام عيني بسرعة البرق حتى ظننتني بحضرة جمهور من البشر تلعب بهم كل اصناف العواطف . ولكنها ، كما قلت ، لم تكن الا لحظة . فما دريت الا وبومعروف عاد وتمدد على الصخرة وجذبني بلطف لأعود واتمدد بجانبه كالسابق . ففعلت وانا كالمسحور لا أدري ماذا اقول ولا ماذا افكر . الا ان بومعروف الذي سحرني ما عتم ان حلني من سحره عندما التفت الي بعينيه الوديعتين وفتح شفتيه القرمزيتين وكلمني بهدوء هكذا :

« – أعرني سمعك فأقص عليك حكاية الكوكو . »

*

« كان ما كان ، كان في قديم الزمان رجل لبناني وامرأته ، وكان الرجل من حارثي الارض الذين يأكلون خبزهم بعرق جبينهم والذين يقول فيهم اللبنانيون « فلاح مكفي ، سلطان

مخفي » . وكان له ولامرأته ولد اسمه خطار يحلفان بالله مرة وبه عشرين مرة . وكان الثلاثة قانعين شاكرين سعيدين بقدر ما يسمح الله لثلاثة من البشر ان يكونوا سعيدين .

وكان لابي خطار وام خطار جار ارمل يحرث الارض كذلك ، وله ابنة اسمها زمرد ، يحلف بالله مرة وبها عشرين مرة . وهذا الجار كان من حارثي الارض كذلك وكان سلطاناً مخفياً .

ومن غير ان يتبادل ابو خطار وام خطار مع جارهما كلمة واحدة بشأن ولديهم ، كان معروفاً عندهم وعند كل اهل القرية ان خطاراً لزمرد وزمرداً لخطار ، مثلما كان معروفاً عند خطار وزمرد ، اذ لم يكن في وسع احدهما ان يصور نفسه بعيداً عن رفيق صباه وفتوته ، وقد مزجت الايام روحيهما بأساليبها السحرية التي تفوق كل ادراك .

يقولون ان الحب اعمى . وذاك خطأ . بل الحب مبصر ، ولكنه ينظر بعين الجمال فيرى كل شيء جميلاً . لذاك كان الحب خلاصة الحياة . فمتى أحب الناس الناس تقلصت عنهم كل ظلال الشناعة فرأوا كل ما فيهم جميلاً . ومتى رأى الناس كل ما فيهم جميلاً عرفوا الحب . ومتى عرفوا الحب عرفوا الحياة . ولان خطاراً وزمرداً عرفا الحب ما كان احدهما يرى في رفيقه غير الكمال .

وكانت سنة ١٩٠٠ وكان صوم الفصح ، فقر رأي ابي خطار

وام خطار وجارهما ان يفرحوا بخطار وزمرد بعد الفصح بقليل، وراحوا يعدّون العدد للعرس .

وحدث في هذه الاثناء ان عاد من اميركا الى القرية واحد من ابنائها اسمه فارس خيبر وله من العمر نحو الاربعين . فاقبل اهل القرية للسلام عليه وللاستعلام عن ابنائهم الغائبين . وعادوا من عنده معجبين بزيه الافرنجي وباحاديثه عن عجائب اميركا وبالتحف التي جاء بها من تلك البلاد الغريبة ، ومنها ساعة كوكو .

هل رأيت في حياتك ساعة كوكو ؟ هي من نوع الساعات الدقاقة ، لكنها تعلن الوقت لا بقرع الناقوس بل بلسان طائر اصطناعي في جوفها . فمتى كانت الساعة الثانية عشرة – مثلاً – انفتحت في اعلاها طاقة وخرج منها ذلك الطائر وردد «كوكو» اثني عشرة مرة، ثم عاد الى جوف الساعة وانقفلت الطاقة خلفه .

وعاد ابو خطار وامرأته وابنه وابو زمرد وابنته من عند فارس خيبر وكل حديثهم في الطريق عن ساعة الكوكو . وكانت زمرد اكثرهم اعجاباً بها حتى انها تمنت لو سمحت لها اللياقة ان تبقى في بيت فارس خيبر ساعات متوالية لترى ذلك الطائر الغريب يخرج من طاقته العجيبة ويهتف : كوكو !

مرّ اسبوع لم يكن فيه من حديث للقوم الا ساعة الكوكو

وصاحبها . فمن معجب بطلاقة لسانه في الانكليزية ، ومن معجب بعصاه التي هي عصا ومظلة معاً ، ومن معجب -- بالكالوش -- الذي كان يحتذيه كلما افلتت من السحاب ولو بضع قطرات من المطر . واعجاب زمرد بساعته ما كان لينقص بل يزداد .

وقرب وقت العرس فلغطت به القرية وتناست القادم حديثاً من وراء البحار . وكانت ليلة العرس وكل شيء قد اعد على آخر طراز ، وابو خطار وام خطار وابنهما وجارهما في السماء السابعة من السعادة ، الا زمرد فقد كانت في سماء غير سمائهم ، لانهم طلبوها فلم يجدوها .

وبالاختصار هربت زمرد مع فارس خبير ، وقبل ان يفيق اهل العروس من هول فاجعتهم ويدركوا الدسيسة ويرسلوا الى بيروت من يبحث عن الهاربين ، كان الهاربان على ظهر باخرة وجهتها مغرب الشمس .

بعد اسبوعين قضى ابو زمرد حسرة على ابنته وحرقة من هوانه وخيبته بين الناس . فكان اول ضحية من ضحايا ساعة الكوكو .

اما ابو خطار وام خطار فتجلدا على مصابهما ، وساعدهما على التجلد ان خطاراً لم يذرف دمعة ، ولا عبرت بشفتيه لعنة ،

ولا انطلقت من صدره تنهدة . فقالا ان من ألهمه مثل هذا الصبر سيعطيه « نصيباً » يكون خيراً له من نصيبه الاول « فنحن بالتفكير والله بالتدبير . »

وكان يوم خرج فيه خطار الى الحقل ليحرث . وبينما هو يحرث وقف فجأة في منتصف الثلمة والتفت الى نفسه وكل ما حواليه وجمد في مكانه ثم خاطب نفسه هكذا :

« حتى متى يا خطار ، حتى متى ؟ لقد دفنت في هذه التربة عشرين من سنيك ، فماذا انبتت لك ؟ ما الفرق بينك وبين هذه الصخور ؟ هي صماء بكماء ، وانت اصم ابكم . ما الفرق بينك وبين هذه الثيران ؟ هي تحرث الارض لتأكل اعشابها ، وانت تحرث الارض لتأكل بقولها واثمارها ! ما دمت على هذه الحصيرة يا خطار فحياتك لا طويلة ولا قصيرة .

« علامَ تنهش قلبك الحيبة يا خطار ، وفكرة الانتقام من فارس خيبر وزمرد تسلبك لذة النوم والطعام ؟ من انت بين الناس وماذا تملك وماذا تعرف ؟ انت لا شيء ولا تملك شيئاً ولا تعرف شيئاً .

« لقد طرحتك زمرد من وراء ظهرها وآثرت ساعة الكوكو عليك . فباي حق تلوم زمرداً يا خطار ؟ من انت من ساعة الكوكو وما فهمك من فهم مخترعها ، وما بلادك من البلاد التي

صنعت اجزاءها وركبت منها آلة غريبة عجيبة ؟ وما ادراك ان ليس في تلك البلاد ما هو اعجب من ساعة الكوكو بكثير ؟ فما اسعد تلك البلاد وساكنيها وما اشقاك في بلادك !

« عيب عليك يا خطار ان يسلبك قلبك رجل كفارس خبير ، وما كان فارس خبير ليسلبك قلبك لو كان لك ماله وفهمه ومعرفته . وفارس خبير قد خاض من اجلها البحار . فما الذي يربطك بهذه الصخور والوعور ؟ ام انت جبان ؟ ام انت ميت ولا تعرف انك ميت ؟ عيب عليك يا خطار ان تغلبك ساعة الكوكو ! »

هكذا خاطب خطار نفسه ، ولاول مرة في حياته رأى كل ما وقعت عليه عيناه شنيعاً وشائناً : ثيرانه ومحراثه ، واشجاره وكرومه ، وصخوره . حتى ان التربة الطرية التي كان ينشرح لانفاسها صدره ، وترتاح قدماه اذ تغرقان فيها ، بدت لعينيه قذى ونتانة ، والثلمة التي تلمها بمحراثه في الارض بدت له قبراً يحفره لنفسه بيده . والصخور المنتشرة في عرض الحقل وطوله ، والاشجار المتمايلة بينها ، والعصافير المرنة على الاشجار بانت كما لو كانت تنوح عليه او تهزأ به . فرفع خطار يده عن محراثه وترك ثيرانه ، وادار ظهره الى الحقل ووجهه الى القرية ، وهناك اعلن والديه انه مزمع على السفر الى اميركا

وان لا مرد لعزمه .

وكانت مناحة ، وكان عويل ، وكان اخذ ورد لكن بلا جدوى . وسافر خطار الى اميركا .

*

شقي خطار في بدء هجرته ، وجرع من المرارة اكواباً ، وعضه الندم غير مرة وابتز من مقلتيه اكثر من دمعة ، وخيم اليأس في روحه ، ومشت في قلبه الخيبة . الا انه ما كاد يستسلم لقنوطه مرة الا انتهره صوت داخلي قائلا : عيب عليك يا خطار ، شد حيلك واذكر ساعة الكوكو !

وشد خطار حيله وادرك انه في بلاد مفتاحها الريال ، وان لا حياة فيها لمن لا مفتاح بيده ، وان من لا يقاتل من اجل ذلك المفتاح يظل خارجاً او تدوسه ارجل المقاتلين . فراح خطار يقاتل بيديه ورجليه واظافره واسنانه . ولم يبقَ له من همّ سوى جمع ثروة تفتح امامه عجائب اميركا وغرائبها ، وتكشف له اسرارها ، وترفعه الى مستوى ساعة الكوكو .

وخدمه الحظ بعد حين ، فانفتح امامه باب للكسب ، وتفتحت بعد ذلك الباب ابواب لان المال يجذب المال . وكان اول ما ابتاعه خطار من باكورة ارباحه ساعة كوكو ، واذ ذاك تولدت فيه عزيمة جديدة لانه شعر انه قد ربح اول معركة

في ميدان جهاده الجديد . وفي لذة الانتصار نشوة تدفع المنتصر الى خوض معارك جديدة للفوز بانتصارات جديدة .

وراحت الايام، وجاءت الايام ، وكانت المجزرة الكبرى. فأفاق خطار واذا به صاحب مغالق تجارية شاسعة . وثروة توبي على المليون. وليس ما يذكره بوالديه اللذين قضيا في اثناء الحرب وبما كان فيه وصار اليه سوى ساعة الكوكو المعلقة على جدار من جدران منزله الفخم . بل ان ساعة الكوكو ما كانت تذكره بذلك الا فيما ندر .

وانتقى خطار لنفسه ابنة سورية مولودة في اميركا اسمها « اليس » واتخذها شريكة لحياته .

*

ليس كالمصائب منبهاً للانسان . فكم من سعادة تأتينا في زي مصيبة ، ومصيبة في زي سعادة !

اما مصيبة خطار فكانت زوجته « اليس » لانه ما طال ان ادرك ان بينها وبينه هاوية لا سبيل الى مد جسر فوقها . وان ما حسبه حباً منها نحوه لم يكن الا تعطشاً الى ماله وما يبتاعه ماله من ملذات الدنيا . وما حسبه ميلاً منه اليها لم يكن سوى رغبة خفية في الهرب من وحدته ووحشته . وكم يهرب

الانسان من وحشة الى اوحش منها كمن يهرب من الدلفة الى تحت الميزاب .

في فضاء الحياة سبل شتى ، فلكل انسان سبيل ، ولكل امة سبيل . حتى لكل قارة سبيل . وهذه السبل تلتقي وتفترق في شبكة لا تدرك اطرافها . ولعل اغرب نقطة في تلك الشبكة هي النقطة التي يلتقي عندها سبيل الشرق سبيل الغرب ، لان الشرق يسير الى محجة الحياة ومركبته قلبه ، وجياده عواطفه وافكاره ، واعنته ايمانه وتقاليده المتصلة بالآزال . بينما الغرب يسير في مركبة روحها البخار او الكهرباء ، وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ ، واعنتها ادعاؤه واعتداده بنفسه . وكلها من مبتدعات فكره . فيلتفت الغرب الى الشرق ويحييه هازئاً : مرحباً يا جار ! اراك تجدّ وتجدّ وتجدّ وتبقى مكانك . ويمضي في سبيله فخوراً بمركبته ظاناً انه سيسبق الشرق الى المحجة ، لان مركبة الشرق محجوبة عن عينيه .

وينظر الشرق الى الغرب فيرى عظمة مركبته ويسمع حشرجتها وطقطقتها ، فتبهره حركاتها ، وتسحره سرعتها ، فيقول في نفسه : المجد لك يا جار ، المجد لك يا جار ! اين مركبتي

من مركبتك ؟ الا اشفقت عليّ واذنت لي ان اتعلق بدواليبها ؟

كذا يقول الشرق عندما يلتقي الغرب ، فيطرح مركبته ، ويبيع روحه ، ليحصل على مركبة كمركبة جاره .

كذا قال خطار في نفسه يوم ادار ظهره الى ثيرانه وحقله ، ووجهه الى البحر . فاصطنع له مركبة شدها بمركبة الغرب ، وراح يطوي في ساعة مسافات ما كان ليطويها في سنة . فاسكرته السرعة ولم تبقِ له من الوقت فرصة ليلتفت الى ورائه او الى يمينه او يساره ، او ليسأل نفسه الى اين هو سائر . لكنه عندما اصطدمت مركبته باول عثرة في سبيلها — عثرة الشقاء البيتي — وجد خطار نفسه كالمحموم وقد غمسته في ماء ببرودة الثلج .

بدأت صحوة خطار بعد زواجه باسبوعين ، ومن الغريب ان فاتحة تلك الصحوة كانت فاتحة سكرته ايضاً — ساعة الكوكو . وذاك ان « اليس » طلبت اليه يوماً ان ينزل تلك الساعة عن الجدار ويطرحها خارجاً لانها « آلة تنك » قديمة ومنظرها يشوه جمال القاعة ، وان يأتيها بساعة من الطراز الجديد . واذ لم يجبها خطار الى طلبها انهالت عليه بوابل من التقريع قائلة : انه من « الطقم » القديم ، وانه فلاح باذوانه

ومداركه . وانه لا يعرف في الدنيا غير تجارته ولا يفهم لغة الا لغة الريال . وانها تخجل به امام رفاقها ورفيقاتها . وانتهت بأن لعنت اليوم الذي ربطت فيه حياتها بحياته .

وتلت تلك الصدمة صدمات . فخاطب خطار نفسه قائلاً : « ويحك يا خطار، ما الذي فعلته بنفسك؟ لقد شددت مركبتك بدواليب هذه المركبة عشرين عاماً فانتهيت حيث ابتدأت – بساعة الكوكو – بل قد رجعت القهقرى. فمن انت اليوم؟ وماذا تعرف وماذا تملك ؟

« لقد كنت رجلاً بين الرجال ، لك زند قوي مفتول ، وصدر عريض مكين ، وقلب شجاع سليم . وكنت سيداً في بيتك وفي حقلك وفي كرمك . وكنت محبوباً من والديك ، مكرماً من اهل قريتك . اما اليوم فمن انت ؟ سجين معلق بدواليب مركبة لا تهدأ طرفة عين ، تكرّ وتكر وتكر . والله يدري الى اين . اذا انت قطعت رباطك منها وقعت مهشماً على الطريق ، واذا بقيت معلقاً بها رأيت روحك بعينيك تتسلل منك وتنسحق رويداً رويداً تحت الدواليب . لقد شئت ان تقهر ساعة الكوكو فقهرتك ، وان تملكها فملكتك . لقد غزوتها في عقر دارها فاستقبلتك بالترحاب لتجعلك لولباً من لوالبها . بل انت احقر من لولب ، واحقر من مسمار في هذه

الآلة الجهنمية . ويحك يا خطار، فقد كنت كل هذه السنين كالهر يلحس المبرد ، فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً انه دمه .

« وماذا تعرف يا خطار ؟ تعرف لغة جديدة ، وبلاداً جديدة ، وازياء جديدة . فما كان اغناك عن معرفة ليست معرفة ، لانك يوم كنت جاهلاً كنت تعرف انك جاهل ، اما اليوم فتجهل انك لا تعرف .

« وماذا تملك يا خطار؟ كان زمان وكان لك ثيران واغنام وحقول و كروم وبيت كان بحق بيتك . اما اليوم . . . في بابل الجديدة بناية هائلة ، وفي تلك البناية غرف عديدة ، وفي بعض تلك الغرف رفوف ، وعلى تلك الرفوف منسوجات غريبة لا تدفع الحر ولا القر عن مخلوق . وتلك المنسوجات هي ملكك ، لكنك لن ترتق بها خروق فؤادك ، ولن تحوك منها احلاماً جديدة ، ولن تكفن بها افكارك السود . . .

« وفي مصرف من مصارف بابل الجديدة خزانات من فولاذ . وفي احدى تلك الخزانات اوراق وسندات ورهون مالية . هي ملكك كذلك . لكنك لن تبتاع بها نعاساً لاجفانك ، ولا صفاء لفكرك ، ولا حرية لروحك ، ولن تستعيد بها والديك ولا زمرداً ! . . »

ومر امامه خيال زمرد ، وللحال انتصب بجانبه خيال اليس ، فراح خطار يقابل بينهما عن غير قصد منه : « ما كان اجملك يا زمرد واحلاك ! ما كان انقى بشرتك وانعمها ! والدم القاني الصاعد من قلبك البتول الى وجهك الطهور ما كان ازكاه واصفاه ! وعيناك اللوزيتان ما كان اودعهما واقدسهما ! وقبلاتك ، آه قبلاتك كم كان فيها من البلسم والسلام !

« ما كنت تلبسين الحرير ولا كانت اللآلىء تثقل عنقك . ولا كنت تنامين على سرير ناعم . الا انك في البيت كنت ملاكاً حارساً ، وفي الحقل بتولاً مولّدة مع الارض البتول المولدة ، وكنت راضية بالحياة ، والحياة راضية بك . ما عرف قلبك الخيانة قط . كلا ، فانت لم تخوني عهودي ، بل انخدعت بساعة الكوكو ، فلا لوم عليك لانك ابنة حواء ، وحواء انخدعت بجمال الثمرة المحرمة . ولا لوم عليّ ، فانا ابن آدم ، وآدم انخدع بانخداع رفيقته . اين انت اليوم ؟ وهل انت راضية بالحياة والحياة راضية عنك ؟

« واليس . ها هي بزنديها العاريين ، وصدرها المكشوف ، وشعرها المجزوز ، وشفتيها المحمّرتين ، وخديها المطليين بالمساحيق ، واهدابها المسوّدة ، وعينيها الجائعتين الى المشاهد المهيجة ، ويديها الناعمتين المرصعتين بالجواهر ، وصدرها الحاوي ، وخصرها

الضامر ، وساقيها المعلقتين بالحرير الخادع الشفاف ، ورجليها المشدودتين بأسيار لماعة ، الواقفتين على الهواء . ها هي : حياة مقنّعة بالموت . وقناعها في اعتقادها ان في ذلك رمز حياتها ، رمز ما تدعوه حرية ومعرفة وتمدناً ورقياً وجمالاً وسعادة . ها هي وقد انتقلت اليها عدوى الحركة الدائمة ، تبحث عن سعادتها في الغبار الذي تثيره تلك الحركة — في المراقص ، في الملاهي ، في السيارات ، في الحلي والحلى ، في التنقل مع ازياء المعيشة الخارجية يوماً بعد يوم ، وفي الثرثرة عن هذه الامور ، حتى كأنها مجبولة من زبد الحياة ولا روح فيها الا القوة الخفية التي تسير بها من لهوة الى لهوة ، ومن علفة الى علفة ، والتي تنزع عنها ثيابها ليلاً وتلبسها اياها نهاراً .

« أوَلستَ ملوماً في ذلك يا خطار ؟ لقد افلتَ من يدك زمرد ، فلست بعد مسؤولاً عنها . اما اليس فمعك ، وقد يمكنك ان تنتشلها من الرغوة الغارقة فيها . وكيف تنتشلها وانت غريق مثلها ؟ »

وتنهد خطار حرقةً على زمرد وعلى اليس وعلى نفسه . وحاول ان يفلت من افكاره فلم يقدر لانها اخذت تساوره كل يوم بقوة جديدة حتى رأى نفسه كالماشي على الخراب وبين الخراب وتحت الخراب . وعبثاً حاول ان يستعيد لذة العمل

في التجارة ، او لذة الانفراد بنفسه ، لان تجارته تحولت في عينيه الى اتون يحرق فيه حياته . وارباحه الى رماد تلك الحياة المحروقة . واحس كأن نفسه انفصلت عنه فلم تبق النفس التي كان يأنس لمجالستها ومسامرتها . واصبح يشعر في حضرتها بوحشة مظلمة فيسعى الى الهرب منها . ومن الغريب انه في مثل هذه الاضطرابات النفسية كان يهرب الى خادمة سورية تولت ادارة بيته ايام عزوبته فابقاها عنده بعد زواجه واسمها سعدى وكانت طاعنة في السن . لكن قلبها كان طافحاً بالعطف وروحها كانت كتاباً مفتوحاً ، لان السنين التي قضتها في اميركا لم تقض على شيء من جمال جوهرها الفطري ولا سلبتها شيئاً من بساطة القلب ولهفة الانوثة التي يكسبها العمر سحراً جديداً . فكانت تغار وتحن على خطار كما لو كان ابنها . وعندما تناديه لا تناديه الا « يا ابني » . وكان خطار يعاملها كما لو كانت امه . وعندما تشتد عليه وطأة الوحدة كان يسرع الى سعدى لينضوي تحت جناحيها كما يسرع الفرخ الى امه ليختبىء من العاصفة تحت ريشها الدافىء الناعم .

وكانت ليلة سلم فيها خطار لمشيئة زوجته ، ورضي ان يتناول طعام العشاء معها في نزل من نزل المدينة وان يكون رفيق اليس الاميركي ضيفها . ورفيق اليس هذا كان من

الشبان الذين وضع الله في أفواههم ألسنة طويلة وجعل محركها في بطونهم بدلاً من رؤوسهم وقلوبهم . وما اكثر ما هم على سطح هذه الغبراء !

وفيما الثلاثة حول المائدة ، واليس ورفيقها يتحدثان عن رقصة جديدة ، اذا بالخادمة التي كانت تأتيهم بالطعام تتقدم الى خطار وتناوله ورقة صغيرة مطوية وتقول : « هذه من السيدة الواقفة بجانب ذلك الشباك خلف الستار !. . » واشارت الى شباك لا يراه الا من كان الى مائدة خطار .

فتح خطار الورقة وقرأ ما فيها . فامتقع لونه في الحال ، وقدحت عينا اليس شراراً واكفهر وجهها وعض رفيقها الاميركي على شفته السفلى وقطب حاجبيه وغمز اليس غمزة ذات معنى كأنه يقول لها : لقد انفضح السر ، فهان الامر واصبح الطلاق قريباً !

غير ان خطاراً عاد فامتلك نفسه . ونهض وانطلق الى الشباك حيث السيدة بانتظاره ، وما حدثها قليلاً حتى بدت على وجهه امائر الدهشة والحيرة ، ثم مد يده وصافحها ، ثم ناولها من جيبه بطاقة عليها اسمه وعنوانه . ثم صافحها ثانية ، وودعها باسماً وهي تبسم له . لكنه ما عاد الى حيث كان حتى وجد

زوجته ورفيقها واقفين وقد ارتديا ثيابهما استعداداً للذهاب ، فادرك ان تصرفه قد اضرم نار ثورة .

عاد الثلاثة في السيارة الى البيت من غير ان يفتح احدهم فاه في الطريق . لكنهم ما دخلوا البيت حتى تدفق من فم اليس سيل من الشتيمة والتقريع والتأنيب : يا للفضيحة ! يا للعار ! أعلى مرأى اناس من نخبة القوم تشنعني هذا التشنيع ؟ اذا لم يكن لك بد من خليلة ايها الخائن أفلا انتقيت لك واحدة ارفع مقاماً من خادمة في مطعم ؟ لست اطلب منك اعذاراً ولا شروحاً ، فقد انتهى الامر . وكل شيء واضح كالصبح . وهل اكذب عيني ؟ لا حديث لك معي بعد هذه الليلة ولن يرتفع فوق رأسينا سقف واحد بعد . اذا كان لك من حديث فليكن مع محام !..

وظلت اليس تحوك على هذا المنوال ورفيقها الاميركي « يصب على يدها » مردداً بلهجة من لحقت به اهانة فظيعة : الحق معها ، الحق معها . فمن ذا يصبر على اهانة كهذه الاهانة ؟ انني في حياتي كلها ما تلوثت بمثل هذه القذارة !

الى ان قرع جرس الباب ودخلت المرأة التي حدثها خطار في المطعم وقد نزعت عنها ثياب الشغل وارتدت ثياباً بسيطة تذيع الفقر والذل . فما لمحتها اليس حتى كاد صوتها يخترق

السقف واخذت الشتائم الجارحة تتساقط من بين شفتيها تساقط البَرَد من السحاب في يوم معصف .

كل ذلك وخطار واقف كأنه 'قدّ' من صخر . وسعدى التي هرولت لصراخ سيدتها تنظر يميناً وشمالاً فلا تفهم شيئاً ، فتغمض عينيها وترسم علامة الصليب متمتمة : نجنا يا الله ، نجنا يا الله !

والمرأة الغريبة جامدة كشبح من عالم آخر . وكأنها بعد قليل من التفكير فيما سمعته ورأته ادركت ان لها علاقة بذلك المشهد .

فتقدمت من اليس وارادت ان تقول كلمة ، فلم تعطها اليس فرصة بل صاحت بها : ابتعدي عني، لا تلمسيني ! ودفعتها بعنف واخذت بيد رفيقها الاميركي، وبأقل من لمحة الطرف خرجت واياه من البيت الذي ارتج باطرافه عند قفلها للباب . وكان ان المرأة الغريبة حين دفعتها اليس تلك الدفعة العنيفة هوت على سعدى الواقفة وراءها ، فهبطت الاثنتان الى الارض وهتفت سعدى : «اي نجنا يا . . . » وكان ذلك آخر ما نطق به لسان تلك المسكينة .

حينئذ دقت الساعة : كوكو ، كوكو ، اثنتي عشرة مرة.

فاجفل خطـار وفرك عينيه كمن افـاق من غيبوبة طويلة . ولاول وهلة لم يصـدق مـا رآه . سعدى التي كانت له اكبر تعزية ، سعـدى التي كانت تمثل في عينيه سوريا القديمـة ، ابنة الفطرة والبداهـة والبساطة غير المقنّعة ، والعاطفة الوثابة من اعمق اعمـاق القلب – سعـدى مطروحة على الارض بلا حراك .

وبجانب سعدى امرأة مذعورة ، مضعضعة الافكار والقوى ، شريدة طريدة ، فقيرة حقيرة . تلك المرأة كانت وردة فواحة في تربتها ، فعنّ لها ان وراء البحار تربة اصلح من تربتها واغنى ، وها هي الآن في تربتها الجديدة لا لون ولا اريج ، بل اشـواك مسننة واوراق ذاوية . ولو شاءت ان تعود الى تربتها لما وجدت الى ذلـك سبيلاً . لانها ام لخمسة بنين ولا معـين لهم سواها ، اذ ان زوجها لا يعرف من الشغل اكثر من رفع القـدح الى شفتيه ومن عد الاوراق على مائدة القمار .

والبس ؟ مزيج غريب ، مزيج انجس ما في الشرق من ولع بزخرف الحياة مع ما يطفو على وجه بحر الحياة الغربية المزمجر من رغوة وفقاقيع .

وهو – هو خطار مسعد – من هو وما شأنه من ذلك المشهد؟ ومرت امام خطار خيالات ماضيه كما تمر البروق ، منقطعة

متكسرة ناشبة من طرف الافق الى طرفه ، فرأى نفسه في الحقل ويده على محراثه . وامامه ثوراه الجلودان الامينان ، وتحت رجليه تربة ارضه اللدنة السخية . وفي صدره انفاسها وانفاس اعشابها وازهارها . وفي اذنيه ترانيم العصافير المرفرفة على افنان اشجارها .

ثم عاد فالتفت حواليه فرأى الموت عن يمينه والحيية عن يساره ، وسمع جلبة المدينة التي لا تنام . فخيّل اليه ان المدينة برج هائل قائم على الوف الدواليب التي تكر بسرعة ابليسية ، وان تلك المركبة الجهنمية تنحدر من علو جبل قمته في السحاب واركانه في هوة لا قرار لها ، وانها تسير على صدره . ورأى الراكبين فيها يتناهشون ويتعاضضون ، مقهقهين ، مولولين ، متسابقين الى حيث لا يدرون ، جاهلين انهم سائرون الى حيث تسير بهم المركبة لا الى حيث يرغبون .

ورأى بين هؤلاء الملايين الوفاً من ابناء بشرته وقد زجتهم الاوهام والمطامع بين الراكبين فداست بعضهم ارجل المتسابقين . وعلق الآخرون بدواليب المركبة فراحوا يكرون معها سكارى وحيارى ومولولين ، يلتفتون الى الوراء ويودون الافلات والرجوع فلا يجدون الى ذلك سبيلاً . وفي اعلى البرج

المنحدر من القمة على الوف من الدواليب رأى خطار ساعة هائلة . وفي اعلى الساعة طاقة يخرج منها بين الفترة والفترة طائر ميكانيكي كبير ويصرخ بابناء البرج : « كوكو ! كوكو ! » فيخرّون على رُكبهم ساجدين ويتهامسون فيما بينهم قائلين : « الساعة كيت وكيت . . . »

وانحنى خطار فوق سعدى والتفت الى المرأة الواقفة بجانبها ، وبصوت تخنقه العبرات قال : « زمرد ! ساعديني . . . » وحمل الاثنان الجثة الى غرفة محاذية . »

*

هنا وقف محدثي وتنهد طويلاً ثم استوى جالساً وقال :

– واليوم ها أنذا يا اخي اقص عليك حكاية ساعة الكوكو. فصدقها لان من قصها عليك هو خطار نفسه !

« ١٩٢٥ »

سنتها الجديدة

قرية يربوب مشهورة بامور كثيرة . كل من حفظ آية داود النبي ان الخمر تفرح قلب الانسان يخبرك بجودة نبيذها وعرقها . وكل صاحب معمل للحرير في لبنان ينبيك بطيبة الشرانق التي يربيها اهل تلك القرية . واذا شاء فلاح ان يشتري بقرة غزيرة الدر او ثوراً قوي العضل لا يتردد في ان يوجه اوّل خطاه نحوها مؤمناً من كل قلبه انه سيجد فيها ما تطمح اليه نفسه . وكذلك الشاب الذي اجتاز مرحلة من العمر وادرك ان الحياة لا تفتح جراب ملذاتها ولا تصب نعمها على العازبين في هذه الدنيا وقرر في عقله ان يضم بقية سنيه الى سني احدى بنات جدته حواء ، ينهض مع الفجر قبل جيرانه واهل قريته ويتخذ نجمة الصبح دليلاً الى تلك القرية عينها . يقضي هناك ليلة او نهاراً ولا يعود – الا نادراً – سوى من بعد ان يودع فؤاده عند من ستصبح « أمته » عما قريب .

ولكن النبيذ والعرق والشرانق والبقر والعرائس ليست الاسباب الوحيدة التي انالت يربوب محلاً سامياً كهذا في اعين جاراتها . بل هناك قوة اخرى رفعتها فوق كل قريناتها . وتلك

القوة هي الشيخ بطرس الناقوس ، او كما يدعوه اهل القرية والجوار وموظفو المركز — الشيخ ابو ناصيف .

ورث ابو ناصيف المشيخة ابا عن جد . وشيوخ القرية الذين ادركوا اباه من قبله في ذاك المركز اقروا بصوت واحد انه يفوق المرحوم بدرجات . اولاً — ابو ناصيف كاتب قارىء والمرحوم لم يكن يعرف من حرفة القلم سوى غمس خنصره في المحبرة ليمسح وجه خاتمه بالحبر ثم ليلحس الورقة بلسانه وينفخ على الخاتم ويلصقه الى الورقة بدقة وتأن فتظهر هذه الكلمات بخط فارسي جميل : « الياس بطرس الناقوس شيخ قرية يربوب » . كثيرون كانوا يتعجبون كيف تمكن الحفار من ضم هذه الاسماء كلها على خاتم عادي صغير الحجم ، ولكن هذا الامر كان من بعض الفضائل التي اكدت للمرحوم انه اعظم واكبر من بقية من حوله .

ثانياً — المرحوم عاش ومات وهو ينام على الارض ويأكل على صينية من القش بملعقة من خشب او بيديه . اما ابو ناصيف فقد اقتنى سريراً و« ناموسية » وطاولة للاكل و كراسي للجلوس الخ . واذا نزل به ضيف كريم لا يندر ان يخرج من بعض صناديقه ملاعق وسكاكين وشوكات ، مع انه — على قول العارفين — يؤثر ان يتبع خطة ابيه و كثيراً ما يترك الشوكة

والسكين ويعمد الى اصابعه حتى امام الضيوف . هو يفضل كذلك النوم على الارض .

ثالثاً – المرحوم عاش ومات وعلى رأسه طربوش فرنساوي لف حوله منديلاً ازرق وعلى ساقيه « شروال » من الخام المصبوغ وعلى وسطه « كمرٌ » كان يضعه دائماً تحت مخدته عندما يسلم نفسه لاله النوم (والبعض يقول انه مات وذاك الكمر تحت مخدته). اما ابو ناصيف فتراه يتجول بطربوش عزيزي وقنباز وزنار من حرير، و « لستيك » على الموضة . وفي الاعياد الكبيرة او عند استقبال ضيوف كبار كالقائمقام او المدير او المطران وغيرهم لا يندر ان تراه في بذلة افرنجية وقميص مكوي وطربوش مائل فوق جبهته يلامس حاجبه الايمن . (اخبرني من عرف ابا ناصيف جيداً انه ظهر مرة عند استقبال القائمقام وعلى صدره ساعة ذهبية، واذ سأله سعادته عن الوقت تلعثم وانقلب لونه واجاب ان الساعة واقفة. ومن ذاك الحين لم يعد احد يرى « الكستك » الذهبي على صدره) .

هناك اشياء كثيرة يفوق بها ابو ناصيف المرحوم والده يخبركم عنها كل من سألتم في يربوب وجوارها . لو سألتم لعلمتم مثلاً ان ابا ناصيف له « هيبة ووهرة » في المجالس وكلمة في المحكمة لم تكن لوالده، وحينما وقع اهل البلدة في مشكل

او مأزق كانت يد ابي ناصيف هناك ، ولا يمضي كثير من الوقت حتى يزول الخلاف وتنحلّ العقدة .

وهناك مزية اخرى يفوق بها ابو ناصيف اهل قريته، وذلك انهم عندما يبدأون بعدّ البيوت التي نزح بعض اعضائها الى اميركا يصلون الى بيت الشيخ ويقفون لانه هو البيت الوحيد في يربوب الذي لم يدفع بعد جزية لكولمبوس.

الاطفال والشبان والشيوخ كلهم يوقّرون ابا ناصيف ويحترمون جانبه،لكن بعض النساء الثرثارات كثيراً ما يتداولن في جلساتهن السرية حديثاً ليس محموداً عن الشيخ ، إما حسداً او بغضاً . لكنهن يتناقلن الاخبار بانهن يسمعن احياناً صراخاً في بيت الشيخ ، وكثيراً ما رأين الشيخة مورّمة الرأس مزرقة الوجه دامعة العينين . هناك امرأة اسمها بربارة تهمس احياناً لرفيقاتها انها لما اخذت مرة للشيخ سطلاً من اللبن وجدته ماسكاً بخناق الشيخة والسم يقطر من عينيه ، وشارباه يرتجفان ، والشيخة مطروحة على الارض وشعرها يستر وجهها . وبربارة هذه نفسها تنقل عن الشيخ اخباراً كثيرة . منها انها وجدت الشيخة يوماً مسجونة في الاسطبل مع البقر والخيل تكاد تموت جوعاً . وانها اتتها برغيف من الخبز . ومنها ان الشيخ « كتب » للشيخة بالموت الخ الخ . ولا عجب، فقوة النساء على اختلاق

الاخبار عظيمة .

لكن الحقيقة التي لبست مكتومة عن احد في القرية هي ان للشيخ سبع بنات. وانه لا يحب ان يسمع احداً يذكر امامه شيئاً عن بناته ، وانه يغير الحديث كلما سأله احد عن الشيخة . وانه يُطرق اذا التقى بامرأة تحمل على ذراعيها طفلاً ذكراً . وانه يغص بريقه كلما قال له احد : «عقبى لفرحة عريس.» وانه نذر نصف كرمه لمار الياس — عليه السلام — اذا جاءه صبي . واخيراً بان الشيخة حامل وستضع عما قريب .

*

عام ١٩٠٨ كعام ١٩٠٧ قبله هبط قرية يربوب تحت صفير الرياح وولولة الاودية . والآن تنوح فوق بقاياه العاصفة وتستره اكفان الظلمة، والسماء تفرش فوق لحده بساطاً ابيض لتستقبل عليه عام ١٩٠٩ .

في القرية بعض انوار لا تزال تتألق من نوافذ البيوت وشقوق الابواب . هناك بعض شبان وصبيات اجتمعوا «ليحركوا بختهم» — بعضهم بالجوز وبعضهم باللوز وبعضهم بالفلوس — تسمع لهم بين الآونة والاخرى قهقهة تحملها الارياح وتدفنها في بطن الوادي .

تقدم الليل واخذت الانوار تموت الواحد تلو الآخر ، كأن روح العام القديم ابت ان تنسل من وجه العام الجديد تحت ذرة من النور وان تبلّغه وصاياها بقرية يربوب على مسمع احد ما من اهل تلك القرية . ولم تلفظ السنة القديمة آخر انفاسها وتنبثق الجديدة من جلباب الازلية حتى كانت القرية كلها بشيوخها وفتيانها واطفالها وكلابها قد غرقت في بحر من النوم طويل .
(نوماً هنيئاً يا عزيزتي يربوب !)

هناك ضوء منفرد شحيح لا يزال يلمع في احد البيوت كأنه يحارب الموت – يهب وينطفىء . أتلك ولولة العاصفة تضرب بنوافذ ذاك البيت فتعود من هناك كأنة طويلة مؤلمة ؟ ام ذاك عواء كلب تلعب به امواج الريح فتجعله يشابه الانة ؟ ام هو صوت بشري خارج من صدر يقطعه الالم ؟

العاصفة تنوح والسماء تبكي، وفي تلك الضوضاء تسمع بين الآونة والاخرى صرخات منقطعة تخرج من نوافذ ذاك البيت حيث الضوء . تلك صرخات خارجة من صدر بشري . صرخات استغاثة :

«يا يسوع ! .. يا عذراء ! .. يا مار الياس ! .. »

هذا هو بيت الشيخ ابي ناصيف، والمستغيث هو الشيخة التي تتمخض اما بذكر او بانثى . لا احد حولها سوى القابلة –

عجوز تناهز السبعين يظهر انها قد اتقنت مهنتها والفت كل ما يرافقها من المشاهد والفصول . لم تخدش الايام جمال وجهها الا ببعض خطوط تتجعد وتتبسط فتشف عن انفعالاتها النفسانية . ولا شك انها الآن في ارتباك عظيم لان هاته الخطوط تتجعد اكثر مما تتبسط . هي تدرك ان العام الجديد قد ابتدأ وانه اذا ولد للشيخ صبي عن يدها هذه المرة فربما لا تخرج من بيته باقل من « ذهب انكليز » وفسطان وربما تحظى ببابوج جديد . هي تنتظر هذه الفرصة من زمان وربما صلت لمار الياس ومار جرجس لاجلها اكثر مما صلى الشيخ والشيخة معاً . وهي تفضل الموت على ان تبشر ابا ناصيف للمرة الثامنة بعروس بدلاً من عريس ، وان تراه يقطب حاجبيه ويزبد ويلبط الارض ويناولها زهراوياً [1] فقط . نعم الموت اولى .

اما الشيخ ابو ناصيف فهو في الغرفة المجاورة يذرعها ذهاباً واياباً بخطوات كبيرة ورأس قد انحنى تحت ضغط افكار تكاثفت حتى صارت في عينيه اشخاصاً حية ملأت فضاء الغرفة ولم تبق له مجالاً للحركة . اصوات ترن في اذنيه ، واشباح تمر امام

---

[1] قطعة من النقد التركي المتداول قبل الحرب العالمية الاولى وقيمتها نحو ستة قروش مصرية .

عينيه . اتون في رأسه ، وزوبعة في نفسه . وتلك العاصفة الجنية ، التي تصرخ وتعول وترقص حول البيت فترقص معها النوافذ والأبواب ، ماذا تطلب منه وبماذا تبشره ؟ بعريس ام بعروس ؟

الاشباح تبرم معه وتدور حوله كراقصات في عرس او كنائحات في جنازة . وقد سدّت في وجهه المسالك وقيدت خطواته فانتصب في وسط الغرفة كصنم تجمهرت حوله الوف من العابدين تتألب جيوشهم كأمواج يمٍّ تفجرت تحته بركانات . وهذه الامواج تركض نحوه من كل جانب .

ها قد غمرته الى صدره فأحس كأن صنين اناخ عليه بقممه وتلاله . ها قد طوقت عنقه وضغطت عليه بكل قواها : « بنت ؟ . . »

ضاقت انفاسه . ثقل رأسه . اظلم النور في عينيه . هو يغرق .

– « يا يسوع ! . . »

خر ابو ناصيف على ركبتيه ورفع يديه وعينيه الى صورة على الحائط تمثل رجلا مصلوباً . وركدت الامواج ورجع صنين الى مكانه وكفت الراقصات والنائحات . ماتت العاصفة

واختفت الاشباح والارواح . ابو ناصيف وحده في الغرفة يحدق بصورة المصلوب واللصين عن جانبيه . غاب اللصان عن بصره فهو لا يرى سوى المصلوب في الوسط والدم يسيل من جنبه ويديه ورجليه المسمرة . اختلطت الالوان والخطوط في عينيه ، فهو لا يرى رأس المصلوب وقد انحنى تحت اكليل الشوك ولا يديه ولا رجليه ولا الصليب ، بل نقطة الدم الخارجة من جنبه . الصورة كلها تحولت في عينيه الى بركة من الدم . ها وجه البركة يتجعد ومن الدم يخرج رأس صغير ازغب فيدان فصدر فبطن فرجلان . الصورة تتحرك وتتململ . تلك ليست صورة ثلاثة مصلوبين بل صورة طفل ذكر . ها الطفل يمد يديه الصغيرتين نحو ابي ناصيف . ها هو ينزل عن الحائط ويدرج نحوه . هو ليس طفلاً بل شاب في اول العمر . ابو ناصيف يفتح له ذراعيه ، ويضمه الى صدره ويقبله بحرارة لم يقبل بها بعد مخلوق مخلوقاً . نعم . هذا هو ناصيف . هذا هو اول وآخر آماله . هذا حلم حياته وعكاز شيخوخته ووريث ثروته ومحيي شرف عائلته . نعم . اسم بيت الناقوس لن يمحى عن وجه الارض . وختم المشيخة لن يقع في يدٍ غريبة . والمطران عند زيارته قرية يربوب لن ينزل في دار غير دار بيت الناقوس .

وجاره الياس الخندقوق لن يفتخر عليه بصبيانه الخمسة .

وام ناصيف ! آه . هو سيقبّل رجليها كل صباح ومساء وسيستغفر منها الف مرة في النهار عن سيئاته السابقة نحوها وسيقسم لها بحياة ناصيف انه لن يمس شعرة من جسمها بغضب وبغض . وسيخدمها بماء عينيه ودم قلبه وسيجعلها زينة البلدة .

اليوم رأس السنة وعند الفجر سينتشر الخبر عن ولادة صبي للشيخ . ستأتي القرية بشيوخها واطفالها لتشاركه بالفرح . اهلاً بهم ، فأبو ناصيف سيدع الخمر تجري انهاراً والذبائح تدوم اسبوعاً او شهراً .

واذا كان المولود بنتاً ؟ . .

مر هذا الفكر كسحابة سوداء في الغرفة فارتجف ابو ناصيف بكل اعضائه واظلمت عيناه .

« يا ... مار ... الياس ! .. »

عاد النور الى قلب ابي ناصيف وانقشعت الغمامة عن عينيه فظهر ناصيف ثانية في حضرة والده . لا . لا . فمار الياس سيجيب هذه المرة نداء قلب كسير . مار الياس الذي يعتبره ابو ناصيف اكثر من كل القديسين فلا يحلف الا باسمه ولا

يصلي الا في كنيسته ولا يمر عليه احد او عيد الا يضع «متليكاً»
في صينيته . مار الياس الذي قدم له ابو ناصيف شمعداناً من
الفضة وايقونة مذهبة . نعم . مار الياس يعرف ان الشيخ
يستحق ولداً ذكراً أكثر من كل رجل في القرية ، وعلاوة على ذلك
فأبو ناصيف مستعد ان يقف له نصف كرمه اذا اجاب طلبته .
مار الياس لا ينكر الجميل .

« يا .. عذ .. را .. ! »

عادت القشعريرة الى جسم ابي ناصيف والخلاء الى قلبه
والظلمة الى عينيه . احتجب عنه ناصيف وحلت مكانه صورة
شيطانية – صورة طفلة تتململ في المهد . تلك الصورة المعلقة
على الحائط والتي تمثل امرأة حاملة طفلاً على ذراعيها بدأت
تتحرك وترتعش . ها قد انحدرت المرأة وطفلها الى الارض .
هي تنظر اليه بحنو وتقترب منه وقد تحركت شفتاها كأنها
تريد ان تخاطبه . الطفل على يدها ليس صبياً بل بنت . ماذا
تريد منه هذه المرأة وماذا تشاء ان تقول له ؟ ابو ناصيف يتميز
غيظاً منها ويده ترتفع ليفتك بها . لكنها تبتسم وقد فتحت
فاها وتلك الابتسامة تزيد في غيظ ابي ناصيف ناراً . هو يجمع
آخر قواه ليتمالك عن ضربها . تكلمي ! تكلمي !

« بنت ! بنت ! بنت ! . . »

امتلأت الغرفة فجأة بهذه الكلمات فأحس ابو ناصيف كأنها انياب تنشب فيه كيفما انقلب . « بنت! بنت! بنت ! »

خسئت يا خائنة ! بل صبي ! صبي! صبي! – هب ابو ناصيف من سجدته كملسوع واندفع الى صورة المرأة على الحائط فأخذها ومزقها نتفاً وطرح بها الى الارض وداسها برجليه مردداً: « صبي! صبي! صبي ! »

عاد ابو ناصيف يتمشى بخطوات اوسع من الاولى ورأس اثقل من جبل صنين، وعادت العاصفة تتابع جنازتها حول البيت فيخيل اليه انها تجنز آماله وتردد : « بنت! بنت! بنت! »

وع . وع . وع ! . .

انقبض قلب ابي ناصيف فجمد في مكانه كمن اصيب بمس . احب ان يخطو فلم تطاوعه رجلاه، وان يرسم الصليب على وجهه فخانته يده .

صبي ام بنت ؟ اينتظر الى ان تأتي القابلة فتبشره بولادة ناصيف ام يذهب هو ليستقبل وريثه وقرة عينه ؟

واذا كان بنتاً ؟ « اخنقها ! »

برق جهنمي لمع في عيني ابي ناصيف وقوة شيطانية دفعته

من مكانه الى الغرفة المجاورة حيث الوالدة والقابلة .

« ماذا ؟ » – لسانه لم يطاوعه ليلفظ اكثر من هذه الكلمة.

قطعت الام نحبانها وحبست القابلة انفاسها ، وكأن الطفل شاركهما بذلك فلم ينطق سوى مرة واحدة « وع » .

« ماذا ؟ » – اعاد الشيخ سؤاله بعد لحظة ظهرت له اطول من دهر . سكينة اعمق من سكينة القبور عادت فسادت في جوانب الغرفة فكاد الشيخ يأكل لحمه غضباً .

« بنت ؟ » – سقطت هذه الكلمة من فمه كقصفة رعد في تلك السكينة الميتة . فذعرت القابلة وارتجفت احشاؤها . ثم تحركت شفتاها محاولة النطق فخانتها شفتاها ولم تنبس الا بحرف واحد :

– ب . . . ب . . . ب . . . – وانقطعت انحابها .

لمعت عينا ابي ناصيف ثانية بذاك البرق الجهنمي فانقض بلمحة طرف على القابلة انقضاض نسر على ارنب وخطف الطفلة من يدها وانطرح الى الباب ففتحه وركض الى الاسطبل فاخذ من هناك رفشاً وسار تواً الى غابة الصنوبر وراء الكنيسة .

الرياح تعصف والثلج ينهمر والاشجار ترقص وابو ناصيف يحفر.

*

بزغ الفجر وبدأ اهل القرية يهنئون بعضهم بعضاً: «عاماً سعيداً. كل سنة وانتم سالمون.» اما في المقبرة وراء الكنيسة فكانت الاشجار تندب والعاصفة تنوح والسماء تبكي بدموع متجمدة وجرس الكنيسة ينادي: «كل عام وانتم سالمون!»

*

اذا رأيتم بربارة من قرية يربوب سلوها تخبركم بان القرية لا تزال مشهورة بجودة نبيذها وعرقها وبقرها. وان الشبان الآتين من اميركا لا يزالون يحجون اليها قبل سواها. وان ختم المشيخة لا يزال في يد ابي ناصيف. وان الكل يقولون: «مسكين يا ابا ناصيف!» اذ قد ولد له صبي ميت فدفنه وحده بيده. ولكن هي — بربارة — تخبركم سراً عن لسان القابلة التي لم تبح بهذا السر لسواها ان المولود كان بنتاً وان الشيخ اعطى

القابلة « ذهبين انكليز » كي تذيع ان المولود كان صبياً جهيضاً . وان الشيخ بقي يضرب الشيخة حتى اختل صوابها فهو لا يدعها الآن تخرج من البيت . وانه – اعني الشيخ – من ذاك الوقت لم يطأ ارض كنيسة مار الياس ، وان البعض يقولون انه ربما غيّر دينه وهجر يربوب الى الابد .

نعم . قرية يربوب مشهورة بأمور كثيرة !

« ١٩١٤ »

العاقر

« يكلل عبدالله « عزيز » على عبدة الله « جميلة » بسم الآب والابن والروح القدس ! »

لما فاه الخوري بولس بهذه الكلمات مساء العاشر من ايار سنة ١٩٠٠ في قاعة فسيحة ، غنية بالرياش والزخرفة ، من دار ابي عزيز الكرباج ، هبطت على مئات من المدعوين الى العرس سكينة خرساء تجللها هيبة سماوية . فالاطفال والاحداث ، والعذارى والفتيان ، والكهول والشيوخ ، كلهم حبسوا انفاسهم كأنهم يصغون الى رفرفة اجنحة خفية . والخوري بولس نفسه ، الذي ربط في حياته بوثاق الزيجة نحو الألف من ابناء قطيعه المحفوظ من الرب ، لفظ هذه الكلمات تلك الليلة بصوت غير صوته العادي حتى خيّل لسامعيه ان الروح القدس كان يتكلم بلسانه . ربما كان ذاك لان الخوري بولس في كل حياته الطويلة التي قضاها خادماً للرب ادرك لأول مرة اهمية كلماته ، وتنورت روحه فرأى الزيجة كسرّ مقدس الهي لا كطقس كنائسي بسيط ؛ او ربما كان ان الخوري ، من يوم اقتبل شرف الكهنوت حتى تلك الدقيقة ، لم يرفع يده ليبارك

رباط عروسين كعزيز الكرباج وجميلة البشتاوي . لكن الحضور شعروا فجأة انهم في حضرة قوة علوية ، وتحولت القاعة في اعينهم ، مع كل ما فيها من انوار الشموع الملتوية ، الراقصة ، المنتصبة نحو العلاء ، الى هيكل طاهر يتم فيه سر مقدس عميق . لذاك توشحوا بالسكوت والورع .

لا شك في ان منظر العروسين كان مما زاد المشهد هيبة وجلالاً . فعزيز الكرباج ، وحيد ابيه وامه ، كان اجمل شاب في كل البلدة وجوارها ، بل في كل لبنان اذا صدقنا ما قاله عنه الكثيرون ان « الله خلقه ورفع يده » : طويل القامة ، ممتلىء الجسم ، ابيض البشرة ، مستدير الوجه ، يسقي بياضه دم الشباب . في عينيه تضحك الحياة وفي شاربيه الصغيرين تتجلى قوة الاعتماد على النفس والثقة بالذات والفخر بما فعله وسيفعله بعد في هذا العالم . هجر والديه لما كان له من العمر ١٨ سنة . جاء اميركا فافلح في التجارة وجمع من الثروة نحو ٥٠٠٠ دولار في مدة قصيرة . ووجد في اثناء ذلك وقتاً ليصرفه على تثقيف ذاته ، فدرس وتعلّم وحصل ما لا يحصله الوف من المهاجرين اللبنانيين والسوريين في عشرات من السنين . ثم لبى دعوة والديه فعاد الى لبنان وبنى داراً فخمة — احسن دار في كل البلدة — وفتح تجارة جديدة . كل ذلك وهو لم يتخط

الخامسة والعشرين من سنيه . وكان اهل البلدة يتحدثون باجتهاده وعقله ولينه ودماثة اخلاقه . فهو لا يشتم ولا يلعن . لا يسب الدين ، لا يسكر ، لا يلعب بالقمار ولا يدخن . يدعو كل شيخ في البلدة « جدي » وكل عجوز « ستي » وكل كهل « عمي » أو « خالي » وكل كهلة « عمتي » او « خالتي » وكل شاب « أخي » وكل فتاة « أختي » . يحيي الطفل ويحيي الشيخ قبل ان يبادراه بالتحية ، ويرفع قبعته عن رأسه باعتبار واجلال عندما يحيي النساء .

وكم من الشبان الحاضرين حسدوا عزيز الكرباج في اعماق قلوبهم وتمنوا لو كانوا في ثيابه تلك الليلة ! والبعض ينقلون عن لسان الخوري بولس ان هذا الشيخ الجليل المحترم اعترف بانه في خمسين سنة قضاها في خدمة الكنيسة لم يشته مرة واحدة ان يبدل حلله الكهنوتية بكل ثروة العالم . لكنه لما امر العروسين — عزيز الكرباج وجميلة البشناوي — ان يتبادلا قبلة المحبة تمنى في تلك الدقيقة لو كان في ثياب العريس !

اما جميلة البشناوي ، فعدا جمالها الساحر ، كانت تتحلى بصفات قلّما اجتمعت بفتاة في كل ذاك الجوار او سواه . اذا دار عنها الحديث في اي مجلس كان — سواء مجلس نساء ام

رجال ، او مجلس رجال ونساء معاً – فاول ما تتناوله الألسن حسنها الرائع ، ثم ينتقل المتحدثون الى طباعها وعلمها وثروتها . يقول واحد انها ملاك – الارض لا تشعر بها – فيزيد الآخر انها « عالمــة » ويعني انها انهت مدرسة داخلية للبنات « وأخذت الشهادة » .

ويتابع الثالث فيقول انها وحيدة وان أباها قد ترك لها بعد وفاته ارزاقاً واسعة و « صندوقاً » من المال . ويضيف الرابع انها سترث ارزاق عمها لأنها وريثته الوحيدة . لذلك فلا عجب اذا ظل زفافها الى عزيز الكرباج موضوع جلسات الرجـال والنساء في البلدة مدة اسبوع على الاقل .

*

مضت الاشهر الاولى من حياة جميلة الزوجية كيوم من ايام الربيع لم ترَ سماؤه غيمة على الاطلاق ، وهواؤه واشجاره وازهاره واعشابه وانهاره ودباباته وحشراته كلها تغلي بخمرة الحياة ولذة التجدد كأنها في مهرجان عظيم ؛ وجميلة كانت في بيتها الجديد – بين حميها ابي عزيز وحماتها ام عزيز وشريك حياتها عزيز – محور حياتهم اليومية ، حولها تدور افكارهم وبها تناط آمالهم . لاجلها يتعبون ولاجلها يعيشون . اذا

ضحكت ضحكوا ، وان عبست عبسوا ، كأنها ينبوع حياتهم ومصدر كل افراحهم واتراحهم .

لما انتهت مدة التهاني بعد العرس اقترحت ام عزيز على ابنها ان يأخذ زوجته الى بيروت او الشام « تغييراً للهواء » ، فصادف هذا الاقتراح استحسان الجميع وزار الزوجان الشام وزحلة وبيروت ، وعندما رجعا هرعت ام عزيز الى جميلة تعانقها وتقبلها وتضمها الى صدرها صارخة بلهفة : « حبيبتي . اطالت الغيبة ! حبيبتي ، احترق قلبي بلاكِ ! » ثم القت نظرة على يدي كنتها فرأت بعض خواتم جديدة على اصابعها وسوارات ذهبية على معصميها وساعة جديدة معلقة بسلسلة ثمينة على صدرها ، فكادت تطير فرحاً .

اما عزيز فكان حبه لزوجته في خلال الاشهر الاولى يتجدد كل يوم . فكل يوم كان عنده عرساً . عندما يذهب صباحاً الى مخزنه يتزود قبلة منها ، واذ يعود عند المساء يجدها بانتظاره في الباب فيأخذها بين ذراعيه ويضمها الى صدره منحنياً فوق وجهها ثم يسألها مقبلاً شفتيها الورديتين : « كيف حال قرقورتي[1] اليوم ؟ » فتجيبه والسعادة تضيء في عينيها

---

[1] « القرقور » في لغة اللبنانيين هو حمل الشاة . والقرقورة انثاه .

منعكسة في كل عضلة من عضلات وجهها : « كيف حال قرقوري اليوم ؟ »

« القرقورة » و « القرقور » اصبحا في قاموس حياتهما اليومية اسمي علم حلاً محل «جميلة » و «عزيز » واحبت جميلة اسمها الجديد حتى كادت تنسى اسمها الاصلي . وكذلك عزيز . وكلاهما كان يكره الزائرين ليس لسبب مادي او تقاعداً عن القيام بواجبات الضيافة الشرقية بل لان الزائرين كانوا يأخذون قسماً من وقتهما الثمين الذي كانا يرغبان ان يصرفاه معاً . وبالاخص لانهما في حضرة الغرباء كانا يضطران ان يرجعا الى « عزيز » و « جميلة » بدلاً من القرقور والقرقورة .

جميلة كانت تكره الزائرين لسبب آخر لم تطلع زوجها عليه. وذاك لأن كل زائر كان يعد من واجبات اللياقة واللطف ان يقول لها كلما قدمت له لفافة من التبغ او فنجاناً من القهوة او نارجيلة او نحو ذلك : « ان شاء الله نفرح لك بعريس . » فكانت هذه الطلبات والتمنيات الدائمة كقطرات سم في كأس سعادتها الطافحة . حب عزيز وقرب عزيز وقبلات عزيز هذه هي سعادتها وكمال حياتها . فلماذا كل هذه التمنيات كأن حياتها ليست كاملة بدون « عريس » ؟

مرةً ، بعدما انصرف الضيوف واختلت مع جميل في

مخدعها تقدمت اليه بلطف واخذت طرف شاربه الايسر بيدها اليمنى لتقبله ثم قالت :

– اسمع يا قرقور ! الا تتضجر من كثرة تمنيات هؤلاء الناس البلداء « من فرحة عريس » يرمونك بها اينما صادفوك ، وفي كل الاحوال ، ومهما كان موضوع الحديث ؟ قد بدأت انفر منها حتى صرت اكره معاشرة الناس لاجلها !

طرحت هذا السؤال على زوجها وهي متأكدة انه سيجيبها بانه يكره تلك التمنيات مثلها او اكثر . وانه يتحملها لان لا سلطة له فوق الغير ليلجم السنتهم . وشد ما كان عجبها عندما سمعت جوابه :

– هل نشتم الناس يا « قرقورة » اذا كانوا يتمنون لنا السعادة ؟

ان هـذا الجواب اكد لجميلة ان متابعة الحديث في هـذا الباب ربما كشفت لها الستر عن اول تناقض في الافكار والمعتقدات بينها وبين عزيز . وهي كانت تثق بكل وجودها، حتى تلك الدقيقة ، ان حياتها مع عزيز ستدوم كما كانت الى تلك الليلة ، ربيعاً دائماً لا يعكرها اقل اختلاف في الميول والاذواق والآراء والمعتقدات . لذاك كانت تخاف ان تجد ولو نقطة صغيرة لا يتفق فيها ذوقها مع ذوق زوجها .

عندما همّ عزيز ان يشتري لها حلاها في بيروت تمنعت كل التمنع لأنها - كما قالت حينئذ - لم تشأ ان تكون « حمارة مشنشلة بالذهب » ولأنها تعد التحلي بالذهب والألماس عاراً على امرأة لها من جمالها وطباعها وحب زوجها ما يكفيها حلية مدى حياتها. لكن عزيزاً اصر على عزمه واسكتها بقوله ان حجتها هي « حجة الفقراء » وان الأفضل ان تلبس لكل حالة لبوسها ، وان مقامها في الهيئة الاجتماعية يحتم عليها ان تلبس حلى ذهبية والماسية ، فاذعنت لارادته لا لأنها اقتنعت بقوة برهانه ، بل لأنها قررت في عقلها ان سعادة الزوجين تطلب اتفاقاً تاماً في الاذواق ، ولأجل تلك السعادة اخضعت ذوقها لذوق زوجها. ولذاك خشيت الآن من متابعة الحديث خوفاً من ان تصل الى حيث لا تشتهي. لكن طبيعتها النسائية ، تلك الطبيعة نفسها التي حملت جدتها حواء على الأكل من الثمرة المحرمة ، دفعتها الآن الى متابعة الحديث الذي فتحته فجأة وما كانت تظنه على شيء من الأهمية :

- أولسنا سعيدين بلا « عريس » ؟ وهل سعادتنا لا تكمل بغير اولاد ؟

قالت ذلك وطرف شارب زوجها لا يزال بين اصابعها تلعب به وعيناها محدقتان بعينيه كأنها تقرأ فيهما ما أحدث

سؤالها في قلبه .

– لماذا هذه الاسئلة يا قرقورة ؟ .. ولكن لو رزقنا الله « عريساً » ، كما يتمنى لنا هؤلاء القوم الذين تضجرين منهم ، أفلا تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا ؟

لم تسمع جميلة هذا الجواب حتى ارتخت اصابع يدها اليمنى فسقط من بينها شارب زوجها وحولت نظرها الى الارض . اذن سعادة عزيز بحبها ليست كاملة . اذن حبه لها لم يبلغ حده بعد ولا يزال قابلاً للزيادة والتضاعف . ولماذا قد امتد حبها له واتسع حتى غمر كل حياتها كموجة جارفة فأصبح عزيز في حياتها الكل بالكل ؟ لماذا لا تطلب زيادة سعادة ولا تسأل ربها الا ان يبقي لها ما تملكه الآن ؟ هي لا تبغض البنين ، كلا بل تشتهي من كل قلبها ان تصبح أماً . لكن هذه الشهوة – سواء تحققت ام لم تتحقق – لا تزيد ولا تقلل من سعادتها ما دام حب عزيز يدفئها ويدور مع دم قلبها الى كل اعضاء جسمها . فلماذا يتكلم عزيز عن « كمال السعادة » و « تضاعف الحب » ؟ ..

دارت هذه الافكار في رأس جميلة باقل من طرفة عين ، فوجدت نفسها مدفوعة الى ان تسبر غور زوجها الى النهاية .

فعادت ورفعت عينيها الى وجهه محاولة ان تعيد اليهما كل اللطف والحنو والاستسلام التي كانت فيهما قبلا ، وقالت آخذة بيد زوجها اليمنى :

– اعذرني يا قرقور على هذه الاسئلة البليدة ولكن ... ولكن لنفرض ...

قالت ذلك ووقفت كأنها خافت ان تفوه ببقية الكلمات التي كانت تدور على طرف لسانها .

– لنفرض ماذا ؟

– لنفرض . . . لنفرض ان الله لم يرزقنا . . . ان الله بخل علينا « بعريس » او « بعروس » . . . فهل . . . يضعف حبك نحوي حينئذ وهل تعد سعادتك ناقصة ؟

– لله ما اكثر اسئلتكِ الليلة ! قلت لكِ انه اذا منَّ الله علينا « بعريس » تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا . واذا . . . واذا لم يشأ الله ان يهبنا ذرية . . . (هنا بلع عزيز بريقه كأن قد اصابته غصة) واذا لم يشأ الله ان يهبنا ذرية . . . ف . . . فماذا نقدر ان نفعل ؟ لا يبقى لنا الا ان نخضع لارادته . دعينا من هذا الحديث فهو بلا جدوى وتعالي لننام !

اخذ عزيز بيد زوجته واما لها الى صدره ، ولاول مرة بعد

اكليلهما قبّلها ولم يشعر بحرارة تتسرب من جسمها الى جسمه ، ولا احسّ دقات قلبها على صدره وبرودة انفاسها على وجهه .

*

اما ام عزيز فلم يبقَ لها غاية في الدنيا سوى الملاحظة والسهر على راحة كنتها . وذاك، في عرفها ، ينحصر في ان لا تدع جميلة تقوم بشيء من اشغال البيت ، لذاك لما تغيبت ذات يوم عن البيت نحو ساعة او ساعتين ورجعت فوجدت كنتها في ساحة الدار والمكنسة في يدها كادت تغيب عن صوابها : « ويحي! ويحي ! ليتني ما كنت ! ليتني تحت التراب ! أمثلك تكنس ؟ يدان كيديكِ لا يليق بهما الا الذهب والأطالس والحرير . هاتي . هاتي . هاتي وروحي تنشي لك عن كتاب تقرئينه ! »

عبثاً حاولت جميلة ان تبرهن لحماتها ان لا عيب في شغل البيت ، وانها لا تتعب من التكنيس ، وانها قد ضجرت من الجلوس والقراءة ، ولذلك تطلب حركة جسدية . تلك البراهين قد تقنع ابا عزيز ، لكن ام عزيز قد شربت من ينبوع فلسفة غير تلك الفلسفة . وفلسفتها ان « بنات الاكابر » يجب ان لا يعملن عملاً على الاطلاق سوى الأكل والشرب والتأنق في اللباس . والا فماذا يقول عنهن العالم ؟

لما رجع عزيز تلك الليلة واستقبلته جميلة حسب عادتها هرولت نحوه امه وأخذت تشكو له بصوت وبعه مزاح وثلاثة ارباعه جد ما رأته من «القرقورة» في ذلك النهار من محاولتها ان تنظف البيت . فوافق عزيز امه على كل ما قالته من ان الكناسة ومسح الغبار وغسل الصحون وما شابه ليس «من خرج بنات الاوادم» وأخذا عهداً للحال على جميلة — قسراً عن ارادتها — ان لا تعود لمثل تلك الاشغال .

وفي اليوم الثاني ذهب واستأجر خادمة اجابة لالحاح امه وطبقاً لرأيه الخاص . ولكي يكون لجميلة ما تقضي به ساعات فراغها الطويلة كان يأتيها من مدة الى مدة برواية او مجلة او جريدة . وجميلة كانت تطالع كل رواية يأتيها بها زوجها . لكنها لم تكتفِ بالمطالعة بل كانت تشعر ان قوى الشباب فيها تطلب شغلاً جسدياً مع الشغل العقلي فتأسف ان ترى ذاتها محرومة من تلك اللذة ارضاء لخاطر زوجها وامه وابيه .

لكن هذا الفراغ في حياتها لم يكن ليقلق راحتها العقلية والنفسانية لولا انه أخذ يتسع مع الايام حتى لم تعد قادرة ان لا تراه ، لا سيما لما بدأت تشعر ببرودة من زوجها في علاقتها معه .

مر عام وتلاه الثاني بعد زواجهما ، وكل يوم جديد كان يؤكد لجميلة ان هاوية فغرت فاها بينها وبين عزيز . هو لم يزل يناديها « قرقورة » وهي لا تزال تناديه « قرقور » وتستقبله كل مساء في الباب او عند اسفل الدرج خارجاً . لكن ذاك الحنو في صوته وتلك اللهفة في عينيه تبخرا كدموع الندى عن وجنات الازهار بعد طلوع الشمس . ولم يبقَ من اثر لتلك الابتسامة اللطيفة ، ابتسامة العاشق، على وجهه الجميل . ووجهه لم يعد كالسابق مرآة مصقولة تشفُّ عن كل حركات روحه وقلبه بل اصبح الآن وجه بحر رائق تمثل الحياة تحته مشاهد خفية لا تراها العين ولا تسمعها الأذن . وذاك النور الالهي في عينيه الذي كان يملأ قلبها بألذ ألحان السعادة والحب قد انطفأ الآن وحل محله فكر اسود عميق تهب منه نسمات باردة على روح جميلة التي كانت لا تزال تعشق بكل قواها .

ان هذا الانقلاب الغريب لم يأتِ فجأة بل بالتدريج . وجميلة بدأت تلاحظه بعد مرور السنة الاولى لاقترانهما . والآن تراه يزداد يوماً عن يوم . قلبها يتوجع وهي لا تظهر الوجع على وجهها خوفاً من ان تتبخر من روحها آخر قطرة

من السعادة التي لا تزال تطلبها نفسها وكل وجدانها . يخيل اليها احياناً ان ما طرأ على حياتهما لم يكن سوى غمامة مرت بسماء سعادتهما وستنقشع عن قريب . لا سيما عندما تسأل نفسها عن اسباب التغير الذي حدث في علاقات زوجها معها فلا تجدها . وهي لا تزال تحبه كالسابق ان لم يكن اكثر . شفتاها لا تزالان تشتاقان شفتيه وصدرها صدره . هي لا تزال تنتظر رجوعه كل مساء بفروغ صبر وتقف في الباب وعيناها محدقتان في جهة واحدة ، الجهة التي سيأتي منها . وبالاختصار فعزيز لا يزال « قرقورها » فماذا طرأ على عزيز ؟

بقي هذا السؤال يعذب جميلة نهاراً بعد نهار وليلاً بعد ليل ، الى ان سمعت مرة مصادفة هذه المحاورة الوجيزة بين حماتها وعزيز :

– يا ابني . الى متى الصبر ؟ انظر الى امرأتك ودبّرها !

– وكيف ادبّرها ؟ هل انا رب لاخلق اولاداً ؟

– ويلاه ! أهكذا يفعل الناس ؟ خذها الى بيروت . خذها الى الشام او دعني انا ادبّرها . أهكذا ينقطع نسلنا ونحن مكتوفو الايدي ؟

– بالله يا امي اتركيني بحالي . فما بقلبي يكفيني . اعملي ما بدا لك ! . .

هذا الحديث القصير بين ام عزيز وعزيز فسر لجميلة كل ما كانت تتوق نفسها المتألمة الى معرفته من زمان. لكن معرفتها السر لم تخفف من آلامها بل زادت قلبها انقباضاً ونفسها اوجاعاً. وما العمل؟ هي تحب عزيزاً ولا تتأخر لحظة ان تموت لأجله، وليس في العالم ما يشقُّ عليها ان تضحيه لاجل ارجاع حبه اليها. لكن عزيزاً يطلب ثمن حبه ما ليس في وسعها ولا في وسع العالم كله تقديمه. فهو يطلب منها اولاداً، وما ذنبها اذا كانت عاقراً؟ هي لم تعد تبالي بالآلام النفسانية التي يسببها ادراكها ان ما كانت تخشاه قد أصبح الآن حقيقة لا تدحض، وذاك ان سعادة عزيز معها لم تكن تامة بدون «عريس» وان حب عزيز لها كان حباً جزئياً لا كاملاً.

كل افكارها تحولت الى نقطة واحدة وهي: هل من سبيل الى تجديد نار الحب في قلب عزيز؟.. السبيل الوحيد ولادة البنين. وحماتها نوهت عن بيروت والشام. فماذا ترى كانت تعني بذلك؟ هل في بيروت او الشام اطباء يقدرون ان يجعلوا العاقر تحمل وتلد؟ حماتها وعدت ان تأخذ هذا الأمر على عاتقها، وهي امرأة محنكة مجربة، أفليس الافضل ان تعمل بكل ما تقوله حماتها؟

لكنها لم تسيء الى احد في هذا العالم ، فلماذا اساء اليها العالم ؟ حبها لعزيز لم تزده الايام إلا ناراً فلماذا خمدت نار حب عزيز نحوها ؟ هي راضية به بدون اولاد ، فلماذا لا يرضى هو كذلك بها ؟ أليس هو المسيء اليها ، فلماذا تسعى لتكفير عن اساءته ؟ اليس الافضل ان تجازيه بالمثل وتقابله على البرودة بالبرودة ؟ اليس الأفضل ان تنتهر قلبها ليستكن وان تطفىء بالدموع لواعج حبها وآلامها ؟ لكن ، ربما ! . . ربما كان في وعد حماتها بعض الأمل . فلماذا لا تتبع بارقة ذاك الأمل ؟

بقيت جميلة مدة تتردد بين الشك والعزم . دموعها تهم بالانهمار فتحبسها . وقلبها يكاد ينفجر في صدرها كقنبلة رشاشة، فتقول له : « على مهلك يا قلب ! . . »

*

أصرت ام عزيز على رأيها هذه المرة وفازت . وعزيز لم يعارضها . وتمنعات جميلة لم تكن لتقف في طريقها . وهكذا امرت كنتها يوماً من الايام ان تعد كل لوازم السفر، وفي الغد « نزلت » معها الى بيروت بعد ان اعلنت للجيران انها ذاهبة « لتشمم كنتها الهواء » لان كنتها « واولاده محصورة ! »

وبعد غيبة اسبوع عادت الاثنتان من سياحتهما ، وعادت

جميلة تراقب موت حبها التدريجي شاعرة انها تموت معه موتاً بطيئاً ، موتاً روحياً .

ان بيروت لم تخفف آلامها الجسدية والنفسانية . ومعاملة عزيز لها كانت تزداد خشونة لا سيما بعد ان مر عام على زيارتها لبيروت . واذا كان عزيز قبل تلك الزيارة يقبّلها قبلات ناشفة ويدعوها «قرقورتي» ولو نادراً فالآن لم يعد يقبّلها على الاطلاق ، وعاد يدعوها «جميلة» ، وقلما يناديها حتى باسمها . وتعلّم فجأة تدخين النارجيلة فصار عندما يعود الى البيت يجلس مساءه مع نارجيلته بدلاً من «قرقورته» لا يحدث احداً ولا يجسر احد ان يحدثه الا اذا جاء ضيوف فيقابلهم بلطفه العادي كأن لم يطرأ عليه تغيير البتة . وعند الساعة التاسعة تقريباً يذهب الى غرفة منامه ويقفل الباب وراءه .

أخذت جميلة تذوب كالشمعة . ولم يكن لها أحد في العالم كله تكشف أمامه روحها سوى امها . ولكن ، ماذا تفهم امها ؟ اذا حدثتها عن المأساة التي كانت تمثلها الأيام في قلبها تتنهد وتبكي ولا تفهم ماذا تقوله ابنتها .

امها كأم عزيز تنظر الى عقر ابنتها نظرها الى قصاص صارم من السماء ، الى فادحة عظيمة ، الى عيب كبير لا يمحى بين

الناس . تنظر الى قريناتها جميلة فتراهن يغذين بأثديتهن صبياناً وبنات فتخنقها الغصة اذ تفكر ان ابنتها التي كانت « زينة » بنات البلدة ، ابنتها التي تحدث الغريب والقريب بجمالها وآدابها ، ابنتها التي تقاطر لطلب يدها الشبان من كل جهات لبنان ، تمشي الآن ولا لبن في ثدييها ولا طفل على ذراعيها . لذلك بدلاً من ان تجد جميلة تعزية عند امها كانت تضطر ان تعزيها .

لم تكتفِ ام عزيز بسياحتها الى بيروت بل اجبرت كنتها ، بعد مرور عام ، ان ترافقها الى الشام ، واعلنت هذه المرة كذلك انها ذاهبة « لتشمم كنتها الهواء » لان كنتها « واولاده محصورة ! » لكن اطباء الشام واطباء زحلة لم يفعلوا ما قصر عن فعله اطباء بيروت ، حينئذ لعنت ام عزيز في قلبها الطب والأطباء وعولت ان تستعين « بالمغاربة » ، فصارت لا تسمع عن مغربي زار البلدة الا دعته الى بيتها وشرحت له حكاية كنتها ، حتى تحول بيت الكرباج الى نزل يؤمه كل من رفع صوته في تلك البلدة ونادى : « حكيم ، طبيب ، دوا للحبة ، دوا للعين ! » ولم يطل ان تحققت ام عزيز ان حذاقة المغاربة كذلك لم تجدها نفعاً . فما العمل ؟

بقي باب لم تطرقه ام عزيز وقد تركته وسيلة أخيرة

تلجأ اليها اذا ضاقت بها كل الوسائل . ذاك زيارة الاديرة ، « عليها السلام » . فراحت تتنقل بكنتها من دير الى دير . . . وجميلة في يدها كآلة خرساء تديرها كيفما شاءت .

في بدء الامر كانت جميلة تتمنع عن هذه الزيارات ، لكنها تحققت بالامتحان ان لا نفع من تمنعها ولذلك استسلمت لارادة حماتها وقد فقدت ارادتها تماماً مع فقد حب زوجها . فالحياة اصبحت عبئاً ثقيلاً عليها لم تكن تجد واسطة للتخلص منه .

مضى على زواجها نحو عشرة اعوام فادركت ان السعادة التي سكرت بها في الأشهر الأولى قد ذهبت ولا أمل برجوعها . عزيز لا يكاد يكلمها على الاطلاق ، حتى ولا ينظر اليها . يقضي اكثر لياليه في السوق ويرجع بين المرة والأخرى احمر العينين مع ازرقاق تحتهما . تتصاعد من فمه روائح العرق والنبيذ والجعة . اسنانه اكتست بغطاء اصفر كثيف . لون وجهه انقلب من الوردي الى الرمادي . طرفا شاربيه هبطا الى اسفل . لحيته لا ترى الموسى احياناً في اسبوع .

وعندما يرجع عزيز الى البيت يتحول البيت الى مقبرة لا حركة ولا حياة فيها . لا يجسر أحد أن ينبس ببنت شفة .

واذا حدث وقال او فعل أحد ما ليس على خاطره - سواء كان ذاك أباه أو امه - يبدأ بشتائم الدين وتكسير كل ما تصل اليه يده من فرش وآنية . ومرة ضرب زوجته لانها رفضت ان تذهب الى الكنيسة وتلبس كل مجوهراتها .

كانت جميلة تراقب كل ذاك وقلبها يتفطر . وابو عزيز وام عزيز ينظران اليها كأنها سبب تعاسة وحيدهما ، لذاك أبغضاها . وكم سمعتهما يتحدثان هكذا :

- ولدي ، تقول ام عزيز ، لقد ذاب من قهره . لا الله يطعمها ولا عزرائيل يقذفها عنه . لو ماتت لتزوج من بنت حلال سواها تأتيه بولد يعزي آخرتنا وآخرته !

فذاك الحنو الذي كانت تلاقيه جميلة من حماتها لم يبق له من أثر : اذا رأتها الآن تكنس وتغسل وتطبخ لا تصيح كالسابق : ويلي ، ويلي ! ليتك تقبرين حماتك ان شاء الله !

الخادمة التي كانت استأجرتها لخدمة جميلة عادت الى بيتها من زمان . جميلة تشتغل اليوم كثور في البيت وخارج البيت . واذا جلست لتستريح تسمع للحال صوت حماتها : رجعنا نقعد ؟ ما هذا الوقت وقت قعود !

الكل يشار كون عزيزاً في مصابه وبلواه وقلّ من في قلبه بعض الشفقة نحو جميلة . اذا خرجت من بيتها تخرج كل امٍّ في البلدة تحمل رضيعاً حتى اذا اقتربت من جميلة خاطبت طفلها هكذا : فؤاد ! – أو بطرس أو حنا – صفق لخالتك جميلة يا ابني صفق ! . . لتلحدني هاتان اليدان الحلوتان بجاه رب السماء ! . .

كل ذلك لتسمع جميلة ويدمى قلبها المجروح . وجميلة كانت تسمع ساكتة وتبكي ساكتة وتتمرمر نفسها من الحياة والعالم ساكتة . اذا مشت شعرت كأنها تمشي فوق اشلاء آمالها التي جندلتها الأيام من حولها ، وان نامت كأنها نائمة على انقاض سعادتها المتهدمة . ماذا بقي لها في هذه الدنيا ولماذا تعيش ؟

ولكن هل ذوت كل آمالها على الاطلاق ؟

اذن لماذا لا تزال تقول : « ربما ! ربما منّ الله علي ! . . » لو منّ الله عليها تُرى هل تعود اليها تلك السعادة المفقودة ؟

عبثاً حاولت جميلة أن تجيب على هذه الاسئلة لأنها أصبحت غريبة عن نفسها . فالظلمة التي اكتنفت روحها لم تبق لها منفذاً

لدرس خفاياها واسرارها ، لذاك تعذر عليها أن تعطي حساباً لنفسها عن نفسها ، فوجدت الاستسلام للايام اسهل طريق تسلكه ، ولذاك لم تعارض ارادة حماتها لما اعلنت لها يوماً عن عزمها ان تذهب بها لزيارة دير قديم باسم العذراء تلهج النساء بعجائبه .

من قال ان زمان العجائب قد مرّ فليذهب الى بلدة ع . من اعمال لبنان ويسأل عما جرى سنة ١٩١٠ . امرأة بقيت عاقراً عشر سنوات ، لم ينفعها علم الأطباء ، ولا ساعدتها عقاقير المغاربة ، ولا شفتها اديرة كثيرة . لكن السيدة — المجد لاسمها — سمعت صلاة ام عزيز الكرباج الحارة .

نعم ، لم تخب طلبات ام عزيز . فقد حملت جميلة في تلك السنة ، وما اسرع الانقلاب الذي حدث في البيت حالاًبل في كل البلدة ! فعزيز عاد يناديها « قرقورتي » مع ان جميلة لم تعد تحب سماع هذا الاسم الذي كان يمزق قلبها كخنجر حاد ولم تعد تنادي زوجها « قرقوري » .

وصار عزيز يرجع الى البيت مساء وفي يديه وجيوبه جميع انواع المأكولات الطيبة والهدايا الثمينة . الخادمة كذلك رجعت الى بيت الكرباج . وام عزيز عادت تهتف كلما رأت كنتها

تمسح الغبار عن كرسي او تحرك الطبيخ في قدر : «ويلي ، ويلي! تقبري حماتك ان شاء الله ! » وعاد ملاك السلام الى بيت الكرباج . فترك عزيز السكر واكتفى بالنارجيلة فقط . وعادت الابتسامة الى وجهه ورجع نور السعادة الى عينيه . وامه تقابل تهانيء أهل البلدة بقلب طافح بالفرح وتذكّر كلّا منهم بان لا فضل لها في ما جرى قائلة :

– السيدة ، المجد لاسمها !

لم يلاحظ عزيز من شدة فرحه الانقلاب العجيب الذي حدث في زوجته . لم يلاحظ ان تلك الابتسامة الملائكية التي كانت تتلألأ على وجهها الوردي فيما سبق قد غابت الآن الى الأبد تاركة مكانها علامة سؤال مبهم . لم يرَ ان تلك القوة الكهربائية التي كانت تتسرب من عينيها الضاحكتين الى اعماق قلبه فتملأه غبطة سماوية قد اختفت الآن وراء تلك الأهداب الطويلة التي تظهر كل دقيقة كأنها تستعد للبكاء والندب . لم يشعر بنغمة جديدة في صوتها ، نغمة حزن عميق لا أول له ولا آخر . لم يرَ اصفرار وجهها ولا تقطب حاجبيها الدائم الذي ينم عن اوجاعها النفسانية . واذا رأى بعض ذلك كان يحسبه طبيعياً في حالة الحمل .

امـا جميلة فكانت كأنها انسحبت من العالم الخارجي الى داخل نفسها كما تنسحب البزاقة الى صدفتها . وهناك انفردت نفسها بنفسها لاول مرة في حياتها ، فاعتراها رعب عندما أخذت تحلل ذاتها بذاتها وترفع الستار رويداً رويداً عن اشياء داخلية كانت تشعر بها ولا تعرف معناها . لأول مرة في حياتها سألت نفسها ما عسى ان يعني كل هذا : صباها وشبابها وزواجها وظمأ روحها الدائم ، وسعادة لم تكد تلمسها حتى تقلصت من بين يديها واختفت الى الأبد ؟ وأنـين قلبها الذي لا يبطل ، كأن حية تقرض اوصـاله . وسياحاتها الى بيروت والشام وزحلة ، وزيارة الأديرة والنذور للقديسين وتقديم الصلوات ؟ ما عسى أن يعني كل ذلك ؟ أهذه هي الحياة ؟ وان كانت تلك هي الحياة فما غايتها منها ؟ أأن تحمل وتلد عريساً لترضي زوجها وأهل زوجها ؟ هي الآن حـامل فلماذا لا تقنع ، ولكن كيف حملت ؟ . .

تصل جميلة في افكارها الى هـذا الحـد ثم تعود الى حيث بدأت .

كيفما انقلبت تشعر كأنها مـاشية في دائرة مسحورة من الأفكار التي تتبعها كأشباح آمال ميتة . وكم حاولت ان تفلت

من تلك الدائرة ولم تقدر . كم حاولت أن تتخلص من نفسها وترجع لتنغمس برأسها في بحر الحياة الواسع ، في حب زوجها وامها وملاطفة حماتها وحميها ، لكن بدون جدوى . قبلات زوجها أصبحت سماً يتفشى في كل جسدها ، وملاطفة حماتها حراباً تقطع شرايين قلبها . ادركت انها قد أصبحت كورقة قطعتها الرياح من شجرة وحملتها الى محلات غريبة قصيّة . ادركت انها غريبة في بيت زوجها وبيت أمها وكل بلدتها بل في العالم كله . وهذه الغربة الروحية كانت تضغط على وجدانها كل دقيقة وكل ثانية حتى سئمت الحياة وسئمت العالم .

*

كان العاشر من شهر ايار سنة ١٩١١ يوماً من تلك الايام الربيعية في لبنان التي يعرفها من عاش في الاماكن المرتفعة من ذاك الجبل ، والتي لم يظهر الى الآن قلم استطاع أن يفيها حقها من الوصف .

كانت الشمس تتخطر على مهلها نحو المتوسط لما عاد عزيز الكرباج من شغله الى البيت ولم يجد زوجته جالسة على الدرج حسب عادتها . سأل أمه عنها فأجابت : انها ذهبت لتتنزه منذ

ساعة ولم ترجع ! . . ثم أضافت انها قد تكون زارت في طريقها بعض الجيران .

لم يكتفِ عزيز بهذا التفسير لعلمه ان زوجته في المدة الأخيرة كانت تتجنب الناس ومعاشرتهم كما تتجنب الأفاعي والعقارب . لذلك دخل تواً الى مخدعها ليرى اذا كانت قد لبست ثوباً من ثياب الزيارة فتأكد انها في ثيابها البيتية . لكنه لم يشاهد هذه المرة ما تعوّد ان يراه في غرفتها من الترتيب والاتقان . وبينما هو يسأل نفسه اين عسى ان تكون « قرقورته » وقع نظره على ورقة مطوية على صفحة الرخام أمام المرآة . فأخذها واذا فيها : « تجدني تحت السنديانة — جميلة » .

قرأ عزيز تلك الكلمات وطار بسرعة البرق الى السنديانة . وهو يعرف كل غصن من تلك الشجرة كما يعرف اصابع يديه العشر . هي السنديانة عينها التي كان يجلس تحتها مع جميلة في الأيام الماضية ، أيام سكرتهما بالحب الأول وسعادة الحياة الزوجية . هي سنديانة دهرية واقفة على ظهر ربوة يجري عند قدميها نبع ماء نقي عذب . حولها كثير من الأشجار المختلفة

الأعمار ، لكنها أقدم شجرة في ذلك الجوار بل في كل البلدة وجوارها .

وصل عزيز الى السنديانة ووقف جامداً كمن أصيب بمس لا يدري أيبكي أم يضحك .

« قرقورة ! قرقورة ! » — أمامه زوجته على الأرض مضطجعة على جنبها الأيمن وعليها ثوب العرس ، ذلك الثوب عينه الذي وقفت فيه بجانبه من مضي احدى عشرة سنة أمام الخوري بولس . على رأسها اكليل من الأزهار . شعرها العقيقي مسدول على كتفها اليسرى . وضفيرة منه تطوق عنقها . وأصابعها تسند خدها الأيمن .

« جميلة ! جميلة ! » جميلة لا تجيب . فانحنى فوقها ولا يزال يخالج قلبه أمل ضعيف بانها ربما كانت نائمة . أخذ رأسها بين يديه وللحال تراجع الى الوراء وصرخ مذعوراً اذ وجد « القرقورة » جثة هامدة .

لما عاد اليه رشده واقترب منها ثانية لمح بين طيّات ثوبها ، فوق صدرها ، رسمه ورسمها في ثياب الاكليل ، ووجد بالقرب منها ورقة مطروحة على العشب كأنها حاولت ان تمزقها ولكن حال بينها وبين ذلك الموت . ففتح تلك الورقة بيد مرتجفة

وهذا ما قرأ فيها:

« الى قرقوري الحبيب الذي لا يثمّن ! »

« في مثل هذا اليوم ربطتنا المحبة بوثاق الزيجة . واليوم – بعد مضي احدى عشرة سنة – يفصلنا الموت . فهل نلتقي بعد ؟

« اذا صح ما يقولونه عن الحياة الآتية فسوف تجدني بانتظارك على عتبة العالم الثاني فاتحة ذراعيّ لاستقبالك ومهيئة شفتيّ لقبلتك . وسوف تسمع سؤالي مرة اخرى : كيف حالك يا قرقور ؟

« آه يا عزيز ، لو كنت الآن بجانبي ! الآن ، وأنا واقفة بحضرة الموت ، أحب أن أشكر لك كل قبلة قبلتني اياها بحب وشوق ، أود أن أشكر لك كل كلمة وكل حركة وكل لحظة حبّبت بها الحياة اليّ . مرّت بي دقائق جعلتني انسى أن في العالم اوجاعاً واحزاناً . وتلك الدقائق كانت من هدايا حبك ، فاشكرك عليها يا عزيز ! حلمت احلاماً جعلتني اظن نفسي في السماء لا على الارض ، وتلك الأحلام كانت من نسمات حبك ، فاشكرك عليها يا عزيز ! ذقت طعم سعادة الفردوس . وتلك السعادة كانت من ثمرات حبك ، فاشكرك عليها يا عزيز !

«اما أنا فماذا قدمت لك عوضاً ؟ قدمت لك جسماً نقياً ، جميلاً ، طاهراً ، وبالاجمال كرست لك ذاتي . وما ذنبي اذا لم توازِ تقدمتي عطاياك ؟ انت لم ترضَ بي وحدي ، لم تكتف بجميلة «مجردة» وانا قبلت بك وحدك دون بقية العالم . انت كنت لي الكل بالكل . سعادتي تمت بك وبحبك ، ولكن سعادتك لم تتم بحبي . أنت لم تظهر لي ذاتك في أول الأمر ، ولكن الأيام كشفت لي ما كان مستوراً عن عيني . كنت اظنك سعيداً بحبي كما كنت سعيدة الى النهاية بحبك فقط . وما امرّ تلك الساعة التي ادركت فيها خطإي ! أتذكر حديثنا عن «العريس» ؟ أتذكر لما سألتك اذا كانت سعادتك غير تامة بلا اولاد ؟ أتذكر جوابك لي ؟ حاولت مع ذلك ان أخدع نفسي . حاولت ان اقنع ذاتي ان محبتك للاولاد كانت كمحبة بقية الرجال ، وان حبك اياي سيبقى كما كان سواء رزقنا الله «عريساً» أم لم يرزقنا . وما أمرّ الحقيقة التي كشفتها لي حوادث السنوات التي تلت ذلك !

«لما تأكدتَ ان لا رجاء مني لألد لك اولاداً نبذتني من حياتك كالنواة . ولم تكتفِ بذلك بل ابغضتني وكرهتني كأنني سم أفعى . بدأت بالتدخين ثم بالسكر ثم بشتمي وضربي .

أتذكر لما ضربتني لأني رفضت أن أذهب الى الكنيسة لابسة كل حليّ ؟ آه ! ما ألذ تلك الضربات من يدك ! قل لي بحقك أما كانت تدخل الشفقة قلبك عندما كنت تنظر اليّ اسير في البيت كشبح أصم أخرس ، اراقب كيف تهبط بناية سعادتي أمام عيني ، وأرى نفسي غريبة كيفما توجهت ؟ أنسيت اني لم أزل من لحم ودم مثلك ، وأني لم افقد رقة شعور النساء ؟ هل قسوت الى حدّ ان لم يبقَ في قلبك مكان للرقة على الاطلاق ؟ آه كم مرة وددت في تلك الدقائق لو نظرتَ الى أعماق نفسي كما كنت تنظر الى خفاياها سابقاً بعينيك الخارقتين ، ورأيت ما كان يجول فيها !

« أنت لا تعرف آلام الجرح في القلب . وأول جرح في قلبي نلته من يدك كان ادراكي ان حبك لي من البداية الى النهاية لم يكن حباً لشخصي أنا ، لم يكن حباً لي كانسان مستقل بوجوده وكيانه في هذا العالم . أنت أحببتني كأم أولادك في المستقبل . أحببتني كأنثى ستترك لك ذرّية قبل أن تموت . ذاك عندك طبيعي . لكنه عندي أمرّ من الموت . لما كنت افكر ان لا ثمن لي في عينيك بذاتي ، ان لا قيمة لجسمي وروحي بين يديك الا كآلة للتبذير ، كنت أطلب الموت لنفسي .

« أنت لا تفهم ذلك . أنت الى الآن لا تدرك ان المرأة

انسان ولها قيمة محصورة فيها ومستقلة عن اولادها . انا وجدت فيك تتمة حياتي ، لكن تتمة حياتك لم تنحصر فيّ بل تعدتني ، وهذا ما كان يؤلمني ويجرح قلبي . أحببتك قبل الزيجة وأحببتك بعدها ولا ازال أحبك الآن . لم ابغضك الا دقيقة واحدة فقط ، لما رفعت يدك وضربتني ، مع اني اذكر ذاك الحادث الآن براحة ولذة واشتهي لو كنت معي لتعيده .

« هل ظننت اني شاذة عن سنّة الطبيعة ؟ هل حسبت اني ، وأنا امرأة ، أبغض الأولاد واعالة الأولاد ؟ آه لو تدري كم ليلة حلمت ان طفلاً على ذراعي ! كنت أراه كذلك في اليقظة يمتص ثديي . واسمع دقات قلبه الصغير وأرى يديه الصغيرتين تلعبان في الهواء . كم مرّة رأيته يدرج أمامي في الدار . كم مرّة سمعته يناديني « ماما ! »

« كم مرّة جلست بقرب سريره الصغير وغنّيت له لينام محدقة بوجهه الملائكي وعينيه السماويتين ! . . لكنك كنت اعمى عن كل ذلك . كيف لا تفهم اني لو رفضت ان اضحي سعادتي ، وهي حقيقة كائنة ، لأجل اولاد لا يزالون في رحم المستقبل ، أي لأجل ما ليس كائناً ، لا اكون اعبّر بذلك عن بغضي للأولاد ؟ الا يقول المثل : عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة ؟ مع ذلك فقد سلمت نفسي لارادتك كعبدة . حرمتني

لذة الشغل في البيت خوفا من كلام الناس ، فرضيت . كرهتني لانني لم ألد لك عريساً ، فحمّلت نفسي فوق طاقتها من زيارة الاطباء والقديسين والأديرة . انتَ لا تدري كم ذرفت من الدموع في خلواتي وابّان سياحاتي. انتَ لا تدري كيف كان يقطر قلبي دماً لما كنت أراك تهرب مني وتميل نظرك عني كأني هواء اصفر ! امك وأبوك كانا يشتهيان ان يقذفني عزرائيل عنك لعلك تقدر ان تأخذ لك امرأة « ولاّدة » . وها انا احذف نفسي من حياتك . فربما وجدت احسن وأخصب مني .

«كنتُ متعلقة بوميض امل ضعيف ، كما يتعلق الغارق بقشة . حملت المضض والألم والذل والاهانة وانا أقول : ربما . . . ربما عدت فولدت لك عريساً بعجيبة من السماء . كنت اظن اني اذا حصلت على ذلك استرجع خيال حبك السابق وسعادتنا الاولى . وشدة رغبتي في ارضائك واسترجاع حبك حملتني على اقتراف ذنب لو غفرته انت لي فلا اغفره انا لنفسي . سيفصلنا الموت عن قريب ، فلماذا اخاف ان اطلعك عليه ؟

« أنا أحمل الآن في احشائي روحاً صغيرة وجسماً صغيراً . هو الجنين الذي اعاد الابتسامة الى وجهك والنور الى عينيك .

لكنه ليس من لحمك ودمك . . .

« ضحيت عزة نفسي وطهارة جسمي لأحصل عليه ارضاء لخاطرك ، لكنني ادركت الآن ان ما فعلته ذنب لا يغتفر . انا لا أريد أن أشتري حبك بالخداع والزنى . . . لكنني لما زنيت ، زنيت لأجلك فقط . . .

« ها أنا أشعر بحركات هذا الطفل التعس بين ضلوعي . لكنها ستهمد عما قريب . ستقف دقات قلبه الصغير عندما تقف دقات قلب أمه الزانية . من هو ابوه ؟ وهل يهمك أن تعرف ذلك ، او هل يخفف ذاك من ذنبي ؟

« يكفيك أن تعرف انه ليس ابنك ، فربما يسرّك حينئذ انني أموت واميته معي .

« الا فاعلم يا عزيز ان العاقر انت لا أنا .

« وأنا ، مع ذلك ، مجرمة في نظرك ونظر العالم ، فهل قتلي لنفسي جريمة كذلك ؟ أولم أمت قبل الآن ؟ ألم أكن ميتة كل هذه السنين التي تركتني فيها وحيدة غريبة كسيرة النفس والقلب ؟ ومن هو قاتلي ، ألست أنت ؟ الآن لا مرد لما فات . ان عزيزاً الذي أحبته روحي أولاً راح ولن يرجع . فما غايتي بعد من الحياة ؟

« لماذا أكلمك عن كل هذه الامور ؟

« بعد دقيقة تجمد هذه اليد وتضمحل هذه الأفكار وتسكت دقات هذا القلب الى الأبد . ها الشمس تميل الى المغيب . وانا أشتهي ان تفارقني الحياة قبل ان يفارق النور أغصان السنديانة . في السنديانة فوق رأسي جوق من عصافير الحسون . ما ألذّ تغاريدها ! ما أطيب خرير الساقية وحفيف أوراق السنديانة !

« أتذكر لما كنّا نأتي ونجلس هنا أول ما عرفنا الحب ؟

« آه لو كنت بجانبي الآن لأضمك ولو مرّة الى صدري قبل ان اودع هذا العالم ! هنا ولدت محبتنا وهنا ادفنها معي .

« في يدي الآن رسمنا في ثياب الاكليل . ما كان أجملك والطفك يا عزيز في ذاك النهار ! ما اجمل شاربيك وما اعمق سحر عينيك وما الذ نضارة وجهك ! آه لو يعود عزيز صباي ، عزيز حبي ، عزيز حياتي وسعادتي ! . .

« ما كان الذ الحياة معك يا عزيز ! اشكرك . اشكرك . اشكرك على كل قطرة من السعادة التي ارتشفتها من ينبوع حبك ، واطلب منك صفحاً عن كل اساءة صدرت مني نحوك ان كان بالقول او بالفعل او بالفكر . اموت واسمك بين شفتيّ . . . هل يمكنك ان تدفن هذه الصورة معي ؟ . . احب ان أنام نومتي الأخيرة مع رسم حبيبي عزيز الذي علقت به روحي من

يوم أدركت معنى الحب . . . لا طلب لي اليك سوى ان تصفح عن هفواتي . . . ولا وصية لي عندك سوى امي . امي . امي . . . حبيبتي امي ! ترى ماذا تفعلين بعد انحجاب جميلتك عنك الى الأبد ؟ ! . .

« اذا ذرفتَ على تربتي دمعة فقط . . . دمعة واحدة . . . أكون ممتنة لك حتى بعد القيامة . . . وداعاً يا قرقوري الحبيب ! وداعاً يا قرقوري الذي لا يثمّن . — قرقورتك : جميلة »

*

أخبرني صاحبٌ من قرية عزيز الكرباج انه رآه حديثاً في نيويورك ، وسأله هل تزوج ثانية ، فأجابه متنهداً وفي صوته غصّة : « لا جميلة بعد جميلة ! »

« ١٩١٥ »

الذخيرة

بئست الساعة التي شككت فيها بقوة الخشبة !

بئست لأنها انتزعت مني سميراً يندر نظيره بين السمّار .

توطدت العلاقات الودّية بيني وبين شاهين بطرس الجزيني في آخر الاسبوع الأول لعودته من البرازيل . وقد رغبت في التقرب اليه لعذوبة حديثه وطلاوة اقاصيصه . فلم يمضِ على تعارفنا شهران حتى أصبحت قادراً أن أقص عن البرازيل ما كان يدفع البعض الى الظن بأني ولدت وقضيت قسماً طويلاً من حياتي فيها . لكنني كنت اضطر كلما دعاني احد من السامعين الى دعم قصتي ببرهان ان احيل السائل الى صديقي شاهين ، وصديقي شاهين كان يدحض كل شكوك السامعين ببرهان قاطع لا يحتمل الرد والتأويل : « رأيت كذا وكذا بعيني » او « سمعت كذا وكذا بأذني . » فكان اذا اخبر عن الأفاعي التي تزدرد الثيران – مثلاً – يقص الحادثة عن نفسه وبلسان المتكلم هكذا :

– « كنت ماراً ذات يوم في حرج كثيف واذا بثور بري واقف كالمسحور في منتصف الطريق التي كنت سائراً فيها .

وبينما انا افكر في وسيلة للفرار منه سمعت نفخة كأنها من كور حداد . واذا بالثور يهوي الى الارض بلا حراك . وهنا برزت من وراء شجرة أفعى كبيرة سوداء ، لو قلت لكم ان محيط دائرة جسمها يساوي استدارة سنديانة مار نقولا او يزيد فصدقوني . انزلت بندقيتي عن كتفي ووقفت مكاني اراقب حركاتها . اقتربَتْ اولاً من رأس الثور وشرعت تلحسه بلسانها ثم انتقلت الى رقبته ثم الى ظهره وهكذا حتى لحست كل جسمه وأتت على آخر ذنبه . ولما انتهت من لحسه أخذت تبتلعه بادئة بالذنب . فتركتها ولم يبقَ من الثور خارج بطنها سوى قرنيه . »

وقد لاحظت في مدة تقربي من شاهين انه يشمئز من كل من يبدي أقل شك في صحة رواياته وأقاصيصه . لذلك كنت اتحاشى جهدي كل سؤال يُشتمُّ منه شك او تكذيب . ومما ادهشني من أمره ان جراب اخباره كان بحراً بلا قاع حتى انه لم يقص علي القصة مرتين ، وكان كلما انهى قصته ورأى الدهشة بادية على وجهي بادرني بقوله :

— « هذه بسيطة . عندي اغرب منها بكثير . »

فهيّج افكاري بترداد هذه العبارة الى ان جئته يوماً قاصداً

ان لا انصرف عنه حتى أسمع أغرب ما عنده من الاخبار .
فجلسنا حسب عادتنا على مصطبة أمام بيته تظللنا دالية من
الكرم قد تدلّت عناقيدها فوق رأسينا ، وجيوش الزلافط
والزنابير تجول بين حباتها مهللة مدمدمة .

ولم تمض بضع دقائق حتى وجدتني قد انتقلت مع جليسي
الى آجام البرازيل اراقب عجائب المخلوقات وارافق صديقي في
رحلاته المحفوفة بالمخاطر . وخيّل الي أكثر من مرّة ان الجالس
بجانبي لم يكن شاهين بل شبحه . وكان كلما أتى على آخر حكاية
رمقني بنظرة من يعرف قيمة نفسه ويرتاح قلبه لعلامات الدهشة
البادية على وجهي . اما انا فكنت عند نهاية كل قصة اردد على
طرف لساني سؤالاً اعددته قبل مجيئي . وهو : « هل هذه
أغرب ما عندك ؟ » وكأنه قرأ ما كان بفكري فأنهى قصة
طويلة لم اصغ لتفاصيلها كل الاصغاء وبادرني بقوله :

— « هذه حادثة غريبة . انا عندي أغرب منها بكثير . فهل
تحب ان تسمع اغرب ما عندي ؟ »

وما كدت اجيبه « هات واسمعنا » حتى رأيته قد أخذ
يفك ازرار قميصه ثم يمد يده الى تحت ابطه ويخرج من هنالك
قطعة من الجلد الاسود مثلثة الزوايا معلقة بخيط اسود حول

عنقه . فالقيت عليها نظرة ازدراء وأملت وجهي باسماً . لكن صاحبي لم يهتم لازدرائي وابتسامة الاستخفاف على وجهي، بل أخذ بيدي ومد قطعة الجلد الى تحت انفي قائلاً :

— « أتدري ما هذه ؟ لو عرفت قوتها كما اعرفها انا لما كنت تضحك . هذه « ذخيرة » من عود الصليب ، الصليب الذي علق عليه السيد المسيح . لا تضحك، فانا قد ضحكت قبلك ، لكني لا اضحك الآن . انا — وانت تعرفني — انا رجل عصري . قديسون وملائكة وشياطين وجنّة وجهنم وآلهة وانبياء — « حط بالخرج » — انا عصري لا اعتقد بدين او ديانة . وكما تراني لست من بسيطي القلب . لكنني أؤمن بهذه الخشبة . »

فاحترت في امري ولم ادرِ آآخذ كلامه مأخذ جد أم هزل . لذاك سكتُّ وكأنه عرف ما دار في خلدي فتابع كلامه :

— « أنا لا امزح . فهذه الخشبة هي ربي والهي الآن وكل أوان والى دهر الداهرين . »

واذ رأيته في موقف جد حاولت ان اقنعه ببراهين تاريخية وعقلية ان من البهتان ان تكون تلك الخشبة من الصليب الذي سمّر عليه الناصري ، وانه اذا صح ان الصليب الذي

وجدته القديسة هيلانة كان صليب المسيح الحقيقي فلا يعقل ان يسمح الذين ظفروا بتلك الجوهرة بعد هيلانة بتجزئتها الى كسر صغيرة كالتي معه ، وانا اذا سلمنا بتحطيم ذاك الصليب فلا نقدر ان نسلم بان رؤساء الديانة المسيحية في كل الاقطار قد تخلوا عن كسرة منه للعلمانيين ، وان الذين يحملون امثال « ذخيرته » يعدون بالالوف ، وانه قد مضى على وجود الصليب اكثر من الف وخمسمائة سنة ، فمن اين له ان يبين ان القطعة التي معه هي من الصليب الحقيقي ، الى ما هنالك من البراهين التي كنت أحسبها كافية لدحض رأي كهذا . وأخيراً سألته اذا كان يؤمن بقوة صليب المسيح فلماذا لا يؤمن بالمسيح نفسه ؟ فاجابني ببرودة خاطر عرقلت لساني وبلبلت افكاري :

— « قد قلت لك انني رجل عصري . وانت تعرفني . فكيف اؤمن بالمسيح وعجائبه وكلها تخالف العقل الصحيح على خط مستقيم ! اما هذه الخشبة فقد رأيت افعالها بعيني وجربت قوتها بنفسي . فكيف اشك بها ؟ اما انها من صليب المسيح فالرجل الذي ابتعتها منه نفى من عقلي كل الشك في أمرها . هو يوناني الأصل . كان قبلاً كاهناً في القدس مقرباً من البطريرك . فاهدى اليه البطريرك هذه « الذخيرة » وليس مثلها

في العالم كله سوى واحدة عند البطريرك المسكوني في اسطنبول واخرى في بطرسبرج وثالثة في كنيسة القيامة في القدس . وقد أراني حجة ناطقة تؤيد ذلك ولا تحتمل الشك . وعدا ذلك قد قلت لك اني شاهدت عجائبها بعيني . وقبل ان ادفع الى اليوناني عشرين ليرة ثمنها جربتها بألف طريقة . يا حيف عليك ! اتظنني من المغفلين ؟ اقول لك اني لم اشترها حتى علقها اليوناني في عنقه وأعطاني بندقية مزدوجة فحشوتها بيدي هذه (وضرب يده اليمنى باليسرى) ثم وقف على بعد خمس خطوات مني وقال : « اطلق عياريك . » فاطلقت العيارين واليوناني لم يصب بأذى على الاطلاق . نعم لم يخمش اقل خمش . حينئذ صدقت ما كان يقصه لي عن انه اصيب بعشر رصاصات في الحرب ولم يجرح ، وانه قضى مرة في البحر يومين عندما تحطمت الباخرة التي كانت تقله فغرقت وغرق كل ركابها إلا"ه لان هذه « الذخيرة » كانت معلقة برقبته . اي . يا حيف عليك ! ألا تعرف انني من الذين « نزعوا الدبس عن الطحينة » ؟ صاحبك شاهين ليس من البسطاء يا صاحبي .

« قصدت ذات ليلة – بعد ان علقت الذخيرة في عنقي – صديقاً لي ساكناً في مزرعة بعيدة من المدينة . وكانت طريقي

بين الأحراج . امتطيت صهوة فرسي واطلقت له العنان . وبينا انا في منتصف الطريق بين ادغال كثيفة قائمة الى الجانبين واذا بفرسي وقف وشخر ثم ارتجف كالقصبة . نظرت الى امامي فاذا بنقطتين تبرقان في الظلمة ، فعرفت على الفور ان أمامي نمراً يتحفز للوثوب عليّ . وما هي الا لحظة حتى سمعت دوي الرصاص ورأيت النمر قد ارتفع في الفضاء ثم انطرح بين الادغال ميتاً . ولم أكد أغبط نفسي على خلاصي منه حتى أدركت اني بين زمرة من العبيد اللصوص الذين بعد ان قتلوا النمر انهالوا عليّ بوابل من الرصاص . فاعملت المهماز في خاصرة الجواد ، وشعرت قبل ان انجو بنفسي برصاصة اصابت فخذي وأخرى رأسي وثالثة ظهري وكلها كانت ترجع عني كأنها أصابت صفيحة من الفولاذ . وقد وجدت في اليوم التالي رصاصتين في السرج وهما لا تزالان عندي . هذا بسيط ! وقد حدث لي اغرب من ذلك عندما احترق البيت الذي كنت اسكنه فذهب وكل من فيه ضحية النار وبقيت انا وحدي سليماً . وهذا بسيط ايضاً ، وقد حدث لي اغرب منه بكثير مما يشيّب الأطفال . وسأقص عليك بعضاً منه فيما بعد . »

لا ادري من اين اتتني الجسارة على ان أقول لصاحبي شاهين بعد ان اصغيت اكثر من ساعتين لأقاصيصه اني — مع

كل اعتباري اياه – لا ازال أشك بقوة خشبته . ولما شرعت اسأله هل فحص بنفسه الخرطوش الذي ناوله اياه اليوناني ليضعه في البندقية عندما جعل نفسه هدفاً للنار نظرت الى وجهه فاذا به قد جمد كقطعة من حديد وجحظت عيناه ثم صاح فجأة بأعلى صوته منادياً ابنه الوحيد الذي لم يبلغ بعد الخامسة من عمره :

« الفريدو ! الفريدو ! »

ولما لم يجبه الفريدو وثب قائماً وهرول نحو البيت ، وبعد هنيهة خرج وهو يحمل في احدى يديه بندقية وبالاخرى يجر الفريدو الصغير الذي تبع اباه صاغراً وعلى يده قطة بيضاء حريرية الصوف يقبّلها تارة وطوراً يداعب رأسها بيده ، اما انا فبقيت جالساً كمن اصيب بمس لا أدري ما عسى ان يعني كل ذلك المشهد ، وشاهين لم يتنازل بعد ذلك ان يبادلني كلمة واحدة كأنني حجر ملقى على المصطبة لا صاحب له . لكن منظر الصبي الصغير وقطته والحنو الذي كان يبديه نحوها مع بعض الدهشة البادية على وجهه من معاملة ابيه حوّلت أفكاري عن شاهين قليلاً فلم ادرك كنه قصده حتى رأيته قد اوقف الصبي على طرف المصطبة ثم نزع الذخيرة من رقبته وعلقها برقبة ابنه آمراً اياه ألا يتحرك

من مكانه . ثم تراجع بضع خطوات الى طرف المصطبة الآخر والبندقية في يده . ثم رفعها الى كتفه فلم اصدق عيني اذ رأيته يصوبها نحو ابنه . فوثبت كالمجنون غير آمل ان اصل الى يده قبل ان يتم القدر الرهيب . واصطكت رجلاي وانقطع نفسي وارتجفت يداي . لكني تمكنت من ان ادرأ الخطر وان اخلص الطفل من الموت . تمكنت من ان اميل يد صاحبي قبل فوات الوقت فدوى العيار في الفضاء وذعر الصبي واجهش بالبكاء .

فهرولت الام بقلب متقطع من داخل البيت ولم تصدّق ان وحيدها لم يزل حياً حتى رفعته بيديها وضمته الى صدرها ونشفت دموعه بشفتيها ، ولما سكن روعها هجمت نحو زوجها وطفقت تصب عليه اللعنة بعد اللعنة والشتيمة اثر الشتيمة . ومن الغرابة انه لم ينبس ببنت شفة بل نزع الذخيرة بهدوء من عنق ابنه ثم صبر حتى عادت زوجته مع ابنها الى داخل البيت وعاد فالتقط القطة التي كانت قد افلتت من يد ابنه وعلق الذخيرة في عنقها ثم أخذها وربطها حيث كان قد اوقف ابنه منذ دقائق ، وتراجع الى الوراء دون ان يتكرم عليّ بكلمة ورفع البندقية ثانية الى كتفه وأطلق عياره قبل ان أتمكن من ان أشفع لديه بتلك

القطة الجميلة المسكينة التي لم يبقَ منها في لحظة سوى امعاء ممزقة وكتل من الصوف مبعثرة وبركة دم صغيرة في المحل الذي كانت مربوطة فيه .

ونظرت في تلك الدقيقة الى صديقي شاهين فاذا بلونه قد امتقع وبعينيه قد جمدتا ثم رأيته قد رفع البندقية في يده وطرحها عنه الى بعيد بحنق كلي ووقف بعد ذلك هنيهة مكانه ثم مرّ من أمامي بخطوات مسرعة فلم أجسر أن أسأله الى أين، بل وجدت من الحكمة ان أعود الى بيتي ساكتاً .

*

كنت بعد ذلك الحادث باسبوع ذاهباً ذات ليلة الى غابة الحور على شاطىء الساقية لأتخلص من وطأة الحر وأسامر الضفادع بعد ان حرمني صاحبي شاهين من لذة مسامرته ، فرأيت في ضوء القمر رجلا جالساً على حافة بركة في الساقية يرمي فيها حجارة . ثم رأيته ينزع من عنقه قلادة ويربط بها حجراً ويطرح الحجر في البركة متمتماً . واذ احسّ بوقع

قـدمي نهض حالاً فعرفت فيه صاحبي وسميري وشعرت بقوة تدفعني اليه لأرتمي على عنقه واطوقه بيدي والثم انامله وأسـأله الصفح عن كل ما سببته له من المساوىء واعـبّر له عن حاجتي القصوى اليه وشوقي الى تجـديد العـلاقات الودية بيننا . لكنّه مرّ كطيف من أمـامي دون ان يلتفت يمنة او يسرة . وقبل ان اجــد في نفسي قوة لأحرك لساني غاب خياله عن عيني وابتلعت السكينة وقع خطاه البعيـد على اوراق الحور اليابسـة .

« ١٩١٧ »

سعادة « البيك »

كنت مع رفيق لي في مطعم سوري نتناول طعام العشاء ، وكانت الساعة بعد التاسعة والمحل قد فرغ من الزائرين . فجاء صاحبه وجلس معنا ليساعدنا باقاصيصه الغريبة على ازدراد مطبوخاته وهضمها . وهو رجل لطيف المعشر يتودد الينا ويغالي في ارضائنا لاننا عنده من الزبائن « المكفولين » . فقال رفيقي لجليسنا ناظراً الى ساعته :

– لقد جئناك متأخرين هذه الليلة يا ابا عساف ، واخاف انك تستعد لتقفل مطعمك وتعود الى بيتك فلا تتأخر من اجلنا !

فهز ابو عساف برأسه يميناً وشمالاً وأقسم لنا بحياة عساف انه يحسب الجلوس معنا شرفاً وانه من اجل خاطرنا يفتح مطعمه حتى نصف الليل ، وانه هو والمطعم على « حسابنا » . واضاف انه قلما يقفل بابه قبل الساعة العاشرة لأن « البيك » لا يأتي حتى الساعة التاسعة والنصف .

فبادرناه بالسؤال سوية بفم واحد : من هو « البيك » يا ابا عساف ؟

وكأننا بسؤالنا جدّفنا على الانبياء والقديسين الذين يعبدهم ابو عساف اكثر من ربه وانكرنا وجود العزة الالهية او قلنا اننا وجدنا في الشورباء خنفساء . اذ جحظ ابو عساف وقال كمن لا يصدّق اذنيه :

– احقاً لا تعرفان البيك ام انتما تمزحان ؟ اذاً من تعرفان ؟

وقبل ان يتغلب ابو عساف على دهشته من جهلنا المطبق اذا بالباب ينفتح ويدخل منه رجل طويل القامة منتصبا ضيّق الكتفين مندلق الكرش ، طويل اليدين والاصابع . في يده اليمنى عصا كذَنَب الكلب . وفي اليسرى جريدة عربية . وعليه بذلة نصفها الاسفل رمادي ونصفها الاعلى بني وكلها قد نهش الاستعمال اطرافها فتدلت خيطانها بين طويل وقصير . اما وجهه فلم ارَ منه لأول وهلة سوى شاربيه الكثيفين الملاصقين لطرف اذنيه ، وانفه المنتفخ كالكوز ، وبشرته الحادة السمرة .

ومشى الزائر بخطوات ثابتة متثاقلة الى آخر المطعم ، وهناك القى عصاه وبرنيطته على طرف الطاولة وجلس يطالع جريدته . فتفرست فيه ملياً اذ رأيت في حركاته ولباسه من الغرابة ما زاد في شوقي لدرس ملامحه . ومن أغرب ما استلفت نظري فيه شكل رأسه الذي يشبه رأس الصنوبر ، وحجم أذنيه

المسطحتين اللاصقتين بجمجمته كقطعتين من العجين ، وشعره القصير الذي يبدأ فوق حاجبيه بقيراطين .

– يا ابو عساف هات لنا كوسى مع الورق وكروش بحمص وحمص بطحينة ، وشوبة بطبخ !

قال زائرنا ذلك دون ان يرفع عينيه عن الجريدة بصوت من تعوّد منذ نعومة اظفاره ان يأمر وان لا يُرد له أمر . وكان ابو عساف مذ رآه داخلاً قد اسرع الى المطبخ فأعد له بلحظة كل ما طلب وقدمه اليه بكل هيبة واحترام دون ان يفوه بكلمة كأن زائره جبار من الجبابرة او ملك من الملوك . وهكذا بقي ابو عساف يأتي بصحون ويأخذ صحوناً الى ان انتهى الزائر من اكله فنهض ووضع برنيطته على رأسه وأخذ عصاه بيدٍ وجريدته بأخرى وخرج مثلما دخل بخطوات ثابتة بطيئة ودون ان يلتفت يمنة او يسرة او ان يدفع لأبي عساف فلساً واحداً .

وما هي الا هنيهة حتى عاد ابو عساف الينا يعتذر عن اهماله لنا مدة وجود الزائر الثالث في المطعم وذلك بلهجة غريبة كأنه كان اخرس وانطلق لسانه . وقبل ان نبادله كلمة واحدة قال :

ـ هذا هو البك . ارأيتماه ؟

فسألناه عن اسمه وشأنه فقال :

ـ اسمه اسعد الدعواق . وهو من بلدتنا في لبنـان وآخر مشايخ بيت الدعواق الذين حكموا بلدتنا زمـاناً طويلاً ، فكانوا مطلقي الارادة وكان اهل البلدة عندهم كعبيد لا يملكون من الارض التي يحرثونها فتراً . فجار الدهر عليهم بعد حين كما جـار على الكثير من الامراء والمشايخ سواهم . وحـدث ان البعض ممن كانوا عندهم قبلاً مرابعين هاجر الى اميركا وعاد بالمال فاشـترى قسماً كبـيراً من الارض التي كانت ملكاً لبيت الدعواق . وأخذ هذا البيت ينقرض جيلاً بعد جيل حتى لم يبق منه الا الشيخ اسعد ولم يبق للشيخ اسعـد من عز اجـداده الا اسم المشيخة وديون لا تحصى .

ثم حـدث كذلك ان واحداً من ابناء البلدة ومن خـدام الشيخ اسعـد سابقاً حصّـل في اميركا ثروة كبيرة فعـاد الى الوطن وبنى له قصراً فخماً وابتاع لنفسه لقب « بيـك » وانتما تعلمان كيف كانت تشترى وتباع هـذه الالقاب عندنا .

وكان الشيخ اسعد حتى ذاك الوقت راضياً بحاله ، قانعاً بما قسم له ، مكتفياً بانه لا يزال شيخ البلدة ووجيهها دون

معارض او مزاحم . اما بعد ان اصبح في البلدة بيك فلم يعد يهنأ للشيخ مقام .

وكيف يقبل ابن الدعواق على نفسه ان يكون في بلدته من هو أرفع منه رتبة ؟

والانكى من ذلك كله ان يكون هذا البيك من بعض خدام الشيخ سابقاً . الموت ولا الصبر على هذه الاهانة ! فانقلب الشيخ بغتة كأنَّ يداً خفية اختلسته وجاءت بسواه . فلم يعد يزور الكنيسة وكان لا يفوته احد ولا عيد . وحتم على زوجته ان لا تخرج من البيت . وسحب اولاده من المدرسة وأقفل أبواب بيته للناس فلم يعد يقبل زائراً .

وصار اذا مشى في الشارع لا ينظر يمنة ولا يسرة . واذا القى عليه العابرون السلام لا يردُّ لهم سلاماً . واذا اتفق والتقى بالبيك في الطريق شمخ بانفه وفتل شاربيه وبرم عصاه في يده وتنحنح وتفل على الارض كمن يتفل على الشيطان .

فحار اهل البلدة في امره وكثرت اقاويلهم وتآويلهم . فمنهم من قال بان الشيخ فقد عقله لان كل خطايا بيت الدعواق ومظالمهم قد تعلقت بعنقه كحجر رحى . ومنهم من قال بانه لم يعد يقوى على معاشرة الناس بعد ان تقلص كل عز اجداده

واحى . ومنهم من ظن ان الشيخ صار يخجل من مقابلة الناس لكثرة ما عليه من الديون وانه لا يقبل الزائرين اذ ليس عنده ما يقدمه اليهم من واجبات الحفاوة واكرام الضيف .

وهكذا بقيت البلدة في قيل وقال الى ان شاع الخبر عن ان الشيخ قد اختطفته جنيّة ، اذ مر نحو اسبوع ولم ير له احد وجهاً . فقامت البلدة وقعدت واجتمع الشيوخ برئاسة الكاهن لينظروا في هذه المسألة الخطيرة ويروا كيف يخلصون الشيخ من يد الجنيّة او كيف يتخلصون من بقية نسل الشيخ ليدرأوا عن البلدة خطر الجان . وبينما هم في اخذ وردّ وقد استحوذ عليهم الذعر والكاهن يبين لهم ان من الضرورة ان يدخلوا بيت الشيخ بالقوة ليرشوه بالماء المقدس وان يبعدوا اولاده وزوجته عن البلدة خوفاً من ان تمتد بواسطتهم سلطة الجان على البلدة كلها ، اذا بالشيخ يدخل عليهم فجأة . فجمدوا لحظة كالمسمرين في اماكنهم . ثم هبوا كرجل واحد واقفين . وهكذا وقفوا بضع دقائق كالأصنام دون ان يحرك احدهم شفة ، والرعب قد اخذ منهم كل مأخذ . واخيراً تجرأ الكاهن فقال بصوت مرتجف بعد ان رسم علامة الصليب على وجهه :

– اهلاً وسهلاً ، اهلاً وسهلاً بالشيخ اسعد !

فقاطعه الشيخ مفتلاً شاربيه :

– سعادتلو اسعد بك الدعواق يا بونا ، سعادتلو اسعد بك . الشيخ اسعد مات وقام اليوم مكانه سعادتلو اسعد بك !

بقي جرس الكنيسة يقرع تلك الليلة نحو الساعة مبشراً السكان بان شيخهم قد اصبح « بيك » . وانتشر الخبر كالبرق في البلدة ان الشيخ اسعد قد غاب كل تلك المدة اذ دعاه المتصرف اليه ليعلنه حصوله على البكوية . فقامت البلدة تحرق ما عندها من البترول والهشيم ، وقام « الدبك » ودار التهليل « يا بيكنا ! » ولآخر مرة في تاريخ بيت الدعواق عادت دارهم فاكتظت بالجماهير ، وعادت الانوار تتلألأ من شرفاتها ، وعاد الشبان والفتيات فأحاطوا بها بين مهللين ومنشدين ومزغردين والكل معتقد ان عزّ بيت الدعواق قد اخذ يتجدد وربما فاق عزّ الأجيال السالفة .

وكان اول ما فعله الشيخ اسعد بعد أن اصبح « سعادتلو » انه اطلق سراح امرأته واعاد اولاده الى المدرسة بعد ان اوصى المعلم ان يجلسهم في رأس الصف لأنهم أولاد « البيك » وألاّ يخطر له ببال ان يجلس اولاد « البيك » الآخر فوقهم ، وعاد

فأبرم صلحاً مع الله وجدد زياراته الى الكنيسة .

ومن شدة غيرته على شرف رتبته الجديدة رفض كتاباً جاءه بعنوان : « رفعتلو اسعد بك الدعواق » ومن ذلك الحين انذر مأمور البريد في القرية انه لا يقبل كتاباً باسمه الا اذا كان معنوناً « سعادتلو اسعد بك » .

اما زوجته فلم يعد يشير اليها امام الناس باسمها ولا باسم بكرها ، بل بلقب « البيكة » فيقول : « البيكة في البيت » و « البيكة لا تستقبل اليوم ضيوفاً » ويمتعض اذا ذكرها احد امامه ولم يذكر لقبها .

وهنا يجب ان ارجع بكما الى البيك الاول ، ذاك الذي كان خادماً عند الشيخ اسعد وهاجر وحصل على ثروة وعاد وابتاع لقب بك قبل ان يناله الشيخ . هذا الرجل واسمه « روكس نصور » كانت في قلبه ضغينة ضد الشيخ اذ كان قد طلب منه يد ابنته فاشتعل الشيخ غيظاً وطرده من بيته وأمره ألا يعود ويطأ عتبته والا ينسى انه كان خادماً ، وكيف للخدام ان يجسروا على طلب بنات الاسياد ؟ فخرج روكس نصور من عند الشيخ وقد اضمر له السوء . فرأى ان يطعنه طعنة نجلاء في نقطة حساسة من حياته ألا وهو اعتزازه باجداده وفخره بانه لا

يزال في مقدمة كل اهل البلدة رتبةً ومقاماً . فراح وابتاع لذاته لقب بك وظن انه قد سحق خصمه الى الأبد. غير انه ما طال ان شاع خبر الشيخ وسفرته الى مركز المتصرفية ورجوعه من هناك مع البكوية . فما الحيلة بعد ذلك ؟

بقي روكس نصور يبحث عن وسيلة للانتقام من خصمه الى ان خطر له يوماً فكر جديد وهو : من اين جاء الشيخ بالمال ليشتري البكوية وروكس يعرف انه يأكل بالدين ويشرب بالدين وانه قد رهن من زمان كل ما فوقه وتحته ؟

وهذا الفكر قاده الى مركز المتصرفية وهناك بحث واستقصى فلم يجد من يعرف الشيخ ولا من سمع به ، وأكد من بينات كثيرة ان الشيخ لا زار مركز المتصرفية ولا نال بكوية ، بل اختلق ذاك اختلاقاً ليحارب خصمه بسلاحه . وانطلت الحيلة على اهل البلدة لانهم سذج ولان اسم الدعواق عندهم يعني القوة والسؤدد والعظمة .

ما عاد روكس نصور باكتشافه الجديد حتى انتشر الخبر بلمحة طرف من بيت الى بيت عن ان « سعادتلو اسعد بك الدعواق » لم يكن سعادتلو على الاطلاق ، وانه لا يزال الشيخ اسعد « حاف » . وفي ذلك اليوم عينه غادر الشيخ البلدة وانقطعت اخباره .

وراح زمان وجاء زمان . وهاجرت انا الى اميركا وفتحت مطعماً في نيويورك . وحدث ذات ليلة أن سمعت ثلاثة من زبائني يتحدثون عن « سعادة البيك » فقال واحد منهم انه رآه في حديقة عمومية بعيدة عن المنطقة السورية يمسح احذية . وقال آخر انه يبيع جرائد في الشارع . وقال ثالث انه وجده ليلة في محطة من محطات قطار النفق نائماً على مقعد من المقاعد هناك. فسألتهم من هو ذاك « البيك » الذي يتحدثون عنه . فقالوا انه سوري يدعو نفسه اسعد بك الدعواق ويقاتل كل من يجسر ان يدعوه باسمه دون لقبه . فلم يعد عندي شك ان الشيخ اسعد في نيويورك . وأصبحت في شوق لألتقي به . وما هي الا بضعة أيام حتى رأيته داخلاً من تلقاء نفسه .

جاء في ليلة لم يكن عندي فيها أحد . وكانت الساعة نحو التاسعة والنصف . فعرفته للحال وعرفت انه عرفني وأسرعت لمصافحته والسلام عليه . فلم يمد اليّ يداً ولا سألني عن حالي . لا حيّا الله ولا سلّم الله . ولما زلق لساني وقلت له اهلاً وسهلاً بالشيخ اسعد رمقني شزراً وكاد يأكلني بعينيه وقال : « اسعد بك يا بو عساف ! اسعد بك ! » وسار تواً الى طاولة وجلس وطلب طعاماً فقدمت اليه كل ما طلب واكثر وحاولت

مراراً ان احدثه فلم يحدثني . وعندما أكل وشبع قام وقال : « قيدهم على الحساب يا بو عساف . » وانصرف .

لقد مرّ على تلك الحادثة نحو السبع السنين ، وهو من ذلك الحين لا يزال يزورني كل ليلة في عين الساعة التي زارني فيها لأول مرة وعلى الحالة عينها . يأتي مثلما رأيتماه الليلة : بيده عصاه وجريدة يتظاهر انه يطالعها وانا أعرف انه لا يحسن القراءة ولا الكتابة . ثم يأكل وينصرف ولا يدفع فلساً وانا أقول : « صحتين واكراماً لوجه الله . »

فقلبي لا يطيعني ان أكسر خاطره . حرام . ما هو الا من بيت الدعواق . وقد عرضت عليه مالاً غير مرة فلم يقبل ولا بارة . مسكين ! »

وتنهد محدثنا تنهدة خرجت من اعماق قلبه .

« ١٩١٩ »

شورتي[1]

من مذكرات جندي مجهول

فرنســا : ايلول سنة ١٩١٨

الجمعة

رفاقي يضحكون مني وانا اضحك من رفاقي . هم يضحكون مني لغرابة أطواري . وانا أضحك منهم لغرابة اطوارهم . غير اني اضحك اليوم من نفسي اذ اراني قد تخلقت ببعض اخلاقهم . والمثل يقول : عاشر القوم اربعين يوماً فاماً تصبح منهم او ترحل عنهم . فقد أصبحت منهم اذ لا سبيل للرحيل عنهم . والى أين يهرب الجندي من جنديته ؟

*

السبت

من الفرح ما يكدر ومن الكدر ما يفرح . فقد فرحت

---

١ معنى هذه الكلمة الحرفي « قصير » بضم القاف وتشديد الياء ، وهي تستعمل للتحبب ، على حد ما تقول العامة في لبنان « قصيراني » .

اليوم لانتقالي من الثكنة الى المستشفى وليس مرضي بالعضال . فقد ألمّ بي ما يدعوه رفاقي « الحكاك الفرنساوي » وثلاثة ارباعهم مصابون به . لكنّه قد حلّ بي بدرجة قوية حتى خدّشت اظافري جلدي تخديشاً . فلما جرى عندنا اليوم الفحص الطبي حسب العادة رقّ الطبيب لحالي فامرني ان اذهب الى المستشفى ليعالجني معالجة خاصة . يقولون ان سبب هذا الحكاك حشرات مكروسكوبية تصعد من ارض المستنقع حيث معسكرنا وتتغلغل في الجلد فتحدث الحكاك حتى يصبح المصاب به كالجرِب : يحك موضعاً من جسمه فلا يهدأ هياجه حتى يبدأ بحك موضع آخر .

انا الآن في مستشفى الأمراض الجلدية . عندي طاولة صغيرة أكتب عليها . وسرير عليه ملاآت مقصور بيضاء ولحاف ثقيل من الصوف . سأنام الليلة ملء أجفاني فلا يوقظني في منتصف الليل الشاويش قائلاً لي ان قد جاء دوري للحراسة . ولا أقضي تحت المطر نصف ليلي حاملاً بندقيتي على كتفي ، اعد خطواتي واصغي لوقع مسامير حذائي على الحصى . وهذا ما يفرحني : سرير ناعم وملاآت كالثلج ولحاف دافىء ونوم هنيء ولا شغل في الغد . وهذا الفرح عينه يكدرني لأنه يريني الفرق بين اليوم وفي الامس . فما اصدق اني انا الذي كان يفترش الاخشاب

ويتوسد الكتب ويلتحف السقف ويسهر الليل مسامراً نفسه مستفسراً اسرارها سعيداً بوحدته مكتفياً بذاته . وان ذلك الرجل الذي كنته في الامس هو عين الرجل الذي يُسرّ اليوم بفراش ناعم كما يُسرّ الولد بألعوبة جديدة نافراً من وحدته مبتعداً عن نفسه . فأحنّ الى الاول واحتقر الثاني . لذلك اقول ان من الفرح ما يكدر .

عندما دخلت المستشفى اشرأبّ نحوي كل من كان فيه . وبعضهم كان يلعب بالورق . والبعض مستلقياً على الاسرّة يغزل أفكاراً بافكار .

فأعرضوا عن لهوهم واحاطوا بي كالحلقة مؤهلين « بالأخ الجديد » وأنا أحسبهم كلهم مصابين بداء الحكاك مثلي . ثم قال واحد منهم :

« لا شك في انك مثلنا ضحيّة « الغازات الخردلية » .

وكنت قد سمعت بان الغازات الخردلية هي من اكثر الغازات سماً تحرق كل ما تتصل به . وحرقها لا يكاد يشفى وآلامها مرّة . فاشفقت على رفاقي اذا كانوا كما يدّعون مصابين بها . وأجبت سائليّ ان مرضي لم يكن إلاّ من أمراض الجلد البسيطة . فالتفت كل منهم الى الآخر التفاتة شك وهزء

وضحكوا وانا واقف بينهم « كالمسطول » لا ادري لمـــاذا يضحكون . فقال أحدهم : ولمَ التستر يا هذا ؟ انظر ، ها نحن عشرة ، والعشرة مصابون بالغـازات الخردلية ولا نستحي من ذلـك . فلماذا تأتينا انت بهذا « الكموفلاج » امراض جـلد ؟ . . كأننـا لم نسمع سواك من قبـل يستتر بهذه الاعاذير !

فأجبته والحيرة قـد أخذت مني كل مأخذ ، والغازات الخردلية قد أضحت عندي لغزاً من ألغاز الكون : قلت لكم يا اخوان ان مرضي من أمراض الجلد البسيطة . فهو ليس إلا « حكاكاً فرنسوياً » . لو كنت محروقاً بالغـازات الخردليـة مثلـكم لكنت أحسب ذاك شرفـاً واجاهر به بدلاً من ان استره !

فقهقه الجميع مرددين : « حكاك فرنـساوي ! حكاك فرنـساوي ! » وتفرقوا عني مقهقهين وأنا في حيرتي كمن اصيب بمس .

*

الاحـــد

بين رفاقي في المدرسة واحد يدعونه « شورتي » لأنه قصير القامة . لا تفارق الابتسامة وجهـه ولا يكلُّ له لسان . ومن

الغريب ان السامع لا يملّ من كلامه بخلاف كل من اعرفهم من الثرثارين . ففي كلامه خفة ولو خالطتها بذاءة . وبذاءته لا تخدش الأذن ولا تمتعض منها النفس . اذا شتم ففي شتيمته عفة . وان مزح ففي مزاحه نكتة . وان قام بحركة ففي حركته عياقة . فكيفما انقلب ومهما قال يستدعي استحسان الجميع فيقهقهون تارة ويصفقون اخرى . ولولاه لكان هذا المستشفى مقبرةً وهذه الاسرّة لحوداً . وهو الذي لقبني « بالحكاك الفرنساوي » ولم يسألني عن اسمي . غير انه اذا ناداني بهذا اللقب ففي ندائه تودد لا احتقار . اما الآخرون فيقصدون به تحقيري واغاظتي بالتهكم عليّ . ولا يدرون ان نفسي ارفع من ان يطالها تهكمهم .

*

الاثنين

رأيت في حياتي كثيراً من الناس . غير اني مثل « شورقي » لم ارَ . هو قبيح المنظر ، افطس الانف ، واسع الشدق ، غليظ الشفتين ، نافر الوجنتين ، ممتقع البشرة ، شعره طويل قاس منتصب على رأسه كأنه مسلات القنفذ ، وكأنّ بين الشعرة والشعرة ثأراً فلا تلتصق الواحدة بالاخرى . اذناه صغيرتان لا

تكادان تظهران من تحت الشعر ، وكذلك عيناه ، لكن بهما جاذبية غريبة تنسل من بين أهدابهما الكثيفة . ولست أدري ما الذي يحبّبه الى رفاقه ، أقبح منظره ام الجاذبية في عينيه . فلا شك في ان الجميع يحبونه . اذا غاب سكتوا او انصرفوا كلّ الى لعب الورق أو الزهر . ومتى حضر التفوا حواليه كالحلقة وارتفع ضحكهم وازداد هرجهم ومرجهم . كلهم يتودد اليه واسمه على ألسنة الجميع فلا تسمع الا من ينادي : شورتي ! لله درك ! فلولاك لكنا نموت ضجراً . شورتي ! قص علينا هذه القصة او تلك . شورتي ! ما رأيك في هذه المسألة او في ذلك الأمر ؟ . .

فهو فيلسوفهم وشاعرهم و « مهرجهم » في وقت واحد . ولقد سمعته يبدي آراءه في امور كثيرة من السخيف المضحك الى الجليل المبكي . ومن الغرابة انه سواء أحدّث عن الحكاك الفرنساوي ام عن الحياة بعد الموت فسامعوه يقهقهون حتى الغصّة . اما هو فضحكته لا تتجاوز الابتسامة .

كثيراً ما يجتمع رفاقي ويأخذون بتبادل اخبارهم الحربية . ذاك يقصّ عما جرى له في معركة « شاتوتيري » والآخر عما لاقاه في موقعة « سان ميهيل » والثالث عما شاهده

في معركة « سواسون » وهلم جراً . اما شورتي فلم اسمع منه
حتى الآن كلمة عن المعارك التي خاضها مع اني عرفت من
وكيل المستشفى انه حائز على مدالية « صليب الحرب »
الفرنسية وان اسمه قد رفع الى وزارة الحربية الاميركية
لتعطى له مدالية « الخدمة الممتازة » . وقد سمعت واحداً يسأله
مرة رأيه في الحرب ، وآخر نظره في « البوش » ، فتظاهر كأنه
لم يسمع السؤال وغيّر مجرى الحديث .

*

الثلثاء

البارحة مساء بعد ان زارنا الطبيب وانصرف مشى شورتي
وراءه حتى الباب .

ثم عاد بعد دقيقة وسأل بصوتٍ عالٍ : يا شبان هل على
بالكم قليل من الوسكي ؟

فضحك الجميع ظناً منهم انه قد جاءهم بنكتة جديدة .
وربما صدّق أحدهم بنزول ملاك من السماء على الارض قبل ان
يصدّق بوجود وسكي في المستشفى .

غير ان ضحكهم لم يكن ليسكت شورتي فاعاد الكرّة

قائلا : دعوا المزح جانباً ، فاذا ما جئتكم الليلة بوسكي فاني والله سآتيكم بابنة عمها ، فما قولكم ؟

فأجاب القوم مداعبةً وهم لا يصدّقون ان في كلام شورتي شيئاً من الجد : هات لنا ابنة عمها فحلاقيمنا قد جفّت من العطش !

وللحال غاب شورتي لحظة وعاد بزجاجة كبيرة فيها سائل ابيض ونادى : تعالوا اليّ ايها العطاش والناشفو الحلاقيم وانا ارويكم !

فهب الجميع من أسرّتهم واحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وأخذوا ينظرون الى الزجاجة نظر من لا يزال مشككاً في ان بينها وبين الوسكي اقل قرابة او صلة .

لكن شورتي ما عتم ان بدد شكوكهم اذ اخبرهم بجد ان ما في الزجاجة هو سبيرتو من اعلى طبقة وانه كيماوي قد فحصه فوجده لا يضر اذا مزج بقليل من الماء ، وان له من الفعل ما للوسكي بل اكثر ، وانه وجد الزجاجة في مستودع العقاقير والادوية الذي نسي وكيل المستشفى اقفاله . فجاءوا في الحال بالكؤوس واداروا الراح وانخفضت اصواتهم من الضجيج الى الهمس كأنهم يتممون سرّاً الهيّاً . ودعوني

لمشاركتهم فرفضت . وخوفاً من طارىء يطرأ اوفد شورتي واحداً من الزمرة الى الباب ليحرسه ، ثم سكب لنفسه من الزجاجة كأساً طافحة ورفعها بيده وخاطب رفاقه قائلاً :

« ايها الاخوان ! لقد جمعتنا اغرب المصادفات في اغرب الاحوال فتعاشرنا وتآلفنا وتحاببنا . وقد ربطتنا رابطة النكبة المشتركة . وكلنا ضحية الغازات الخردلية . »

فضحك السامعون عند ذكر الغازات الخردلية هاتفين : الغازات الخردلية ، الغازات الخردلية . يا لها من غازات سامة قتالة !

واستأنف شورتي كلامه :

« لقد جئتكم غريباً عنكم فأصبحت واحداً منكم . جئتكم فوجدتكم مستسلمين لليأس ووجدت اليأس يقرض قلوبكم قرضاً حثيثاً ، فحاولت ان اخفف من بلواكم ، فأقمت من نفسي لكم مهرجاً . وقد نجحت بما قصدت . فلقد مكثت بين ظهرانيكم نحو الشهر . فمرّ الشهر ونحن بين ضحك ولعب حتى نسينا الخردل وغازات الخردل . ما طلبتم اليّ شيئاً في طاقتي وضننت به . ولا سألني أحدكم امراً وخيّبته . بل كرست لكم كل وقتي من نهوضي من الفراش حتى عودتي اليه . أقول ذلك لا

طلباً لأجر او رغبة في ثواب . فما ثوابي إلاّ محبتكم ولا اجري الا ان اكون رفيقاً لكم وتكونوا رفاقاً لي . غير اني بدالة الرفقة والمعشر ارغب ان اطلب اليكم أمراً زهيداً فهل تجيبون طلبي ؟ »

فهتف الجميع بصوت واحد : اطلب ما بدا لك يا شورقي فكلنا رهن امرك !

فاستطرد شورقي خطابه :

« ما شككت قط يا اخوان في ان خاطر شورقي عزيز لديكم . فما اطلبه هو ان تتركوني الليلة مرتاحاً فلا تسألوني سؤالاً ولا تخاطبوني بكلمة ولا يقترب احدكم من فراشي . فاني ارغب ان انفرد بنفسي لاني بحاجة الى الراحة والانفراد .

« لقد شربنا وفرحنا وضحكنا . والآن فلنشرب ايها الاخوان سر اجتماعنا بغير ميعاد ، فكما جمعتنا مصادفات غريبة هكذا ستفرقنا مصادفات غريبة واحوال غريبة . فمن يدري ماذا يضمر الغد ؟ »

وشرب كأسه حتى الثمالة وشرب الآخرون . واذ ذاك رفع الزجاجة الفارغة بيده ورمى بها الى الارض فطارت شظايا ،

ثم التقط واحدة منها وجرح بها اصبعه حتى سال دمه واتى بمكنسة فكنس الشظايا . واخيراً دخل مستودع العقاقير وجاء بقليل من الشاش وربط به اصبعه وانطلق رأساً الى فراشه وارتمى عليه ، كل ذلك باقل من لحظة والتسعة الآخرون ينظرون مبهوتين كأن قد انقضّت عليهم صاعقة .

كنت ارقب شورتي وهو يخطب فرأيت في ملامحه معاني جديدة وسمعت في صوته رنّة غريبة . فما جاء على آخر خطابه حتى تقلصت عن وجهه ابتسامته الخلابة وادلهمت عيناه وكأني رأيتهما قد تبللتا .

ويظهر ان الآخرين قد لاحظوا ما لاحظت فلم يأخذوا كلامه على مأخذ المزح وانصرف كلّ الى فراشه . إن تكلموا فهمساً ، وان مشوا فعلى اطراف اقدامهم . وقد سمعت جاري يهمس بأذن جاره : ماذا ترى حلّ برفيقنا شورتي ؟ فهو يخاطبنا الليلة كأنه يودعنا . فهل تقرر شفاؤه وعرف انه سيخرج غداً ؟ هنيئاً له ، اما نحن فنعلم العلم اليقين ان لا شفاء لنا !

*

الثلثاء

ها قد مرّ اسبوع منذ سطرت آخر كلمة في مذكراتي

وحتى الآن لم أجد في يدي قوة لأحمل القلم واكتب .

لقد تمّ ما قاله شورتي في خطابه عن ان مصادفات غريبة جمعتنا في احوال غريبة وستفرقنا مصادفات غريبة واحوال غريبة . فعقدنا قد انفرط ونحن اليوم بدون شورتي . . .

بعد ان أقفلت دفتري ليلة الثلثاء الفائتة واطلقت روحي في عالم الاحلام شعرت ، والنعاس يطبق اجفاني ، بيد تهزّني فأفقت كالملذوع وسمعت صوتاً يهمس في اذني : « لا تخف ! سألتك بالله ان تنهض . واياك ان تنبس بكلمة ! »

فعرفت صوت « شورتي » ، وقبل ان اتغلب على دهشتي سمعته يسألني : « هل عندك قلم رصاص ؟ هل عندك شمعة ؟ هل عندك ورق ؟ انر شمعتك واجلس . هاك ثقاباً . على مهلك . على مهلك . كيلا توقظ احداً . »

فانرت شمعتي وجلست في فراشي واذا بشورتي واقف بجانب سريري وعليه بزته الجندية بكاملها من الحذاء حتى القبعة . اصبعه ملفوفة بالشاش وشعره الاسود نافر من تحت قبعته وعيناه تقدحان شرراً . وبدون ان يفسح لي مجالاً لاسأله ماذا عسى ان يعني كل ذلك قال لي : « قم واتبعني . لا تسَلْ . هات الشمعة معك . ولا تنسَ القلم الرصاص والورق . اتبعني

واياك ان يُسمع لقدميك صوت . »

فلم امانع لاني شعرت للحال ان ارادتي قد انسحبت مني فاصبحت بين يديه كالطفل يقودني كيف شاء ويفعل بي ما اراد . لذلك تبعته فادخلني مستودع العقاقير واقفل الباب . ثم أمرني ان اركز الشمعة على طاولة هناك ، واجلسني على صندوق من الخشب ووقف بجانبي ثم قال : « لا تطرح علي اسئلة ، فستفهم كل شيء . ولا تستغرب مناداتي لك باسمك ، فانا اعرفك واعرف اسمك . لقد وجدت فيك فضيلة لم اجدها في سواك . وهي فضيلة السكوت . وسكوتك ليس سكوت الأبله بل سكوت المفكر المتعمق . فانت لا تعرقل افكارك بالكلام لانك تعرف لذة السكوت . لذلك قد اخترتك من بين الآخرين لأنك تفهم وهم لا يفهمون . فخذ قلمك واكتب ، لأن يدي لا تطاوعني على الكتابة :

« سيدي المحترم ودرو ولسن »

فكتبت ذلك ووقفت استعد لكتابة ما يلي . غير انه بلمحة طرف انتشل القلم من يدي ومد خطاً فوق ما كتبت وارجع الي القلم قائلاً :

— لا بل اكتب :

« الى حضرة الجنرال دجان برشنغ قائد الحملة الاميركية العام . . . » هل كتبت ذلك ؟ لا ، الافضل ان تمحوه .

هل محوته ؟ اكتب هكذا :

« عزيزتي فلانة .

« لا أدعوكِ باسم لأني من بين كل اسماء النساء لم اجد اسماً يليق بكِ . والاسماء بين الناس تستعمل كالدمغة للماشية ليميز واحدها عن الآخر . فهي لا تؤدي صفات المسمى . وصفاتكِ لا يستوعبها اسم، فانتِ أرفع من ان تسمّي واجلّ من ان توصفي .

« انتِ لا تعرفينني اما انا فاعرفك، وان كنت لا اعلم مَن انت ولا اين ولدتِ ومتى . فانا موقن بأنك تتنفسين في هذه الدقيقة في مكان ما ، في بلاد ما . انتِ قبيحة المنظر في اعين الناس جميلته في عيني . فانا احب انفك الأفطس وذقنك المستطيلة واحناكك النافرة وجبينك المغطى بالشعر وعنقك الضائع بين رأسك وكتفيك ، وكتفيك المحدودبتين وصدرك الملتصق بظهرك وخصرك الذي يحجب وركيك . احب حاجبيك الكثيفين واحب عينيك الصغيرتين ففيهما قد تجلت روحك .

« لقد حفظتَ جسمك طاهراً من الاقذار اما انا فقد دنست جسمي بكل ادران العالم لان مرضاً خبيثاً يأكل لحمي وينخر عظمي ويمتصّ دمي . . . »

هنا ارتجفت يدي واقشعر بدني فلم اتمالك من ان أكف عن الكتابة وارفع بصري الى « شورتي » ، وإذ رأى الدهشة على وجهي والسؤال في عيني قال وكأنّ الكلمات تتسابق للخروج من بين شفتيه :

– ما لك وقفت ؟ أأدهشك ذكر الداء الخبيث ؟ الا تدري انني مصاب به ؟

قلت : لقد سمعتك مراراً تشكو من الحروق ، من الغازات الخردلية !

فاجاب هازّاً رأسه وعلى وجهه ابتسامة مرارة وحزن عميق:

– ذاك اصطلاح نسير عليه هنا من باب « الكموفلاج » وما كنت احسبك جاهلاً لهذا الحد ، والآن احلّفك بالله ألاّ تقاطعني فيما بعد . تابع الكتابة:

« . . . فأنا جيفة حيّة بين اجياف متحركة ، ويداي ملطّختان بدماء بريئة لأني جندي وعمل الجندي القتل . لقد حرمت اكثر من زوجة لقاء زوجها ، وحبيبة عودة حبيبها .

وقد أوجدت في العالم اكثر من ثكلى ، واكثر من يتيم ويتيمة . ولقد بعثرت اكثر من أمل ، وفقأت اكثر من عين ، ودمرت اكثر من بيت . لذاك دعاني الناس شجاعاً ، وكافأوني بما يحسبونه شارات شرف وفخر . غير اني مجرم في عينيك ، وانا مقرّ بجرمي ولا اطلب صفحاً ، فطلبي الصفح منك هو اهانة لك . ولقد سببت لك اكثر من اهانة ، فهل اضيف الآن الى الطين بلّـة ؟

« لو كنت اجهلك لكنت اطلب منك صفحاً . غير اني اعرفك واعرف انك لو كنت مكاني لفعلت ما انا عازم ان افعل . وماذا يفعل جاهل جازف بحياته فخسرها ؟ ماذا تفعل جيفة متحركة ؟ وان تسألني كيف جازفت بحياتي ، ولماذا ؟ فاليك الخبر :

« انا لا اعرف لي اباً ولا اماً ، وقد سمعت البعض يقولون اني لقيط . وسواء كنت لقيطاً ام لطيماً ، فالذي اعرفه انني ربيت بلا اب ولا ام . وهكذا نشأت في العالم . ولا أدري من الذي وضع بين ضلوعي قلباً لم يختلج في صدر بشر قلب نظيره ، كأنّ دمه كبريت ملتهب وشرايينه اسلاك كهربائية تربطه بكل ما رسا ودبّ ومشى وطار على وجه الارض وفوق وجه الارض .

« حملتُ هذا القلب ستة وعشرين ربيعاً بين الناس ولم اجد بينهم من كان قادراً ان يلتهب بلهيبه . لا بل لم اجد بينهم من ادرك اني احمل في داخلي قلباً مستعراً . اذا كشفت لاحدهم عن قلبي واحسَّ بلهيبه هرب . وان رششت على قلبي رماداً من رماد عادات الناس وطقوسهم وتأدبهم وتسترهم ، حسبوني جماداً ولم يروا مني سوى انفي الافطس وساقيَّ القصيرتين وشعري المنتصب على رأسي كالحراب . ستة وعشرون ربيعاً قضيتها بين الناس وفي صدري أتون من الحب . فلم اجد من تجاسر ان يدني قلبه من قلبي ليحترقا معاً أمام مذبح الحب . ولا كان قلبي يحترق فاستريح . ولا زيت الحب ينضب فتهدأ نيرانه . وجاءت الحرب فقلت هذه فرصة ثمينة فلأغتنمها ولأحوّل نار الحب في قلبي الى نار بغضاء . فالبغض قد اصبح اليوم دين العالم . واذا اتّقد قلبي بنار البغض اتّقدت معه قلوب . فليحترق قلبي مبغضاً اذا تعذر عليه ان يحترق محباً .

« وهكذا تطوعت في الجندية . ثم سألت نفسي : ها انا اليوم مبغض بين مبغضين ، وناقم بين ناقمين . فعلى من أغضب وممّن انتقم ؟ فسمعت رفاقي يندون بالأوتقراطية

والاستبداد والظلم والبربرية والقوة المطلقة . فقلت ها هم اعدائي فلأصبنّ عليهم كبريت نقمتي . وذهبت بنار بغضائي الى ساحة القتال فلم اجد هناك لاعدائي من اثر . وجدت جهلاً يناطح جهلا ، وبشراً يذبحون بشراً ، وكلهم مدفوع لا دافع . فادركت ان الناس لا يقدرون ان يبغضوا إلاّ الناس وانهم قاصرون عن بغض شر مجرّد كما انهم قاصرون عن حب خير مجرّد . ووجدت نار بغضائهم كنار حبهم ، شرارة لا تكاد تلمع حتى تنطفىء .

« حينئذٍ رششت على نار بغضائي رماداً ورحت بين الناس امدح ما يمدحون وأذم ما يذمون . وكفنت قلبي بابتسامة بسطتها على وجهي . فرأى الناس ابتسامتي فاحبوها ، اما القلب المكفن تحتها فلم يروه ولم يحفلوا به . ودفنت بلواي تحت مظهر المجون فاعجب الناس به ولم يشعروا ببلواي . وقلت اسير مع الناس حتى النهاية فاتنعم بما يتنعمون . فدخلت كهوف ملذاتهم وخرجت منها كما انا اليوم « جيفة حيّة » . وما كنت لآسف على قلب خمدت فيه نار الحب ، وجسم ينخره اليوم سوس الفحشاء لو لم يتراءَ لي شخصك في المنام .

« فلقد ادركت الآن ان القلب الذي كنت ابحث عنه ،

والروح التي كنت انشدها هما حقيقتان لا خيالان . فذاك القلب هو قلبك وتلك الروح هي روحك ، وانت حينما كنت فانك حقيقة لا وهم .

« ولماذا لم اعرفك قبل ان خمدت نار حبي وفارقتني طهارة الجسد ونقاوة الروح ؟

« لماذا لم التقِ بك يوم كنت احمل في صدري مشعلاً وكانت روحي خليلة الفضيلة وجسمي انقى من الثلج ؟

« اما الآن فقد عرفتك لتزداد حرقتي . عرفتك بعد ان لم يبقَ لي ما يليق ان اقدمه لك . فانتِ لا ترضين بي كما انا . وانا لا ارضى ان ادنس طهارتك بقذارتي ولا ان اطفىء حبك برماد حبي .

« هل مللت هذياني ؟ ومَن إلاّكِ يفهم هذيان روحي ؟ فانت ترين ما لا يُرى ، والناس لا يرون إلاّ الظواهر . وانت تدركين عظم حرقتي ، والناس يرون ابتسامتي ويسمعون مجوني فيقولون : هنيئاً له ، فهو بعيد عن الهم والهم بعيد عنه !

« لذلك وان فقدت حياتي فقد وجدتها اليوم في قبضتك . ولكي اكون اهلاً للحصول عليها سأطهر نفسي وجسمي من

كل ادرانها وسأعود الى موقد الحب فانفض الرماد عن قلبي واضع محله قبساً من ذاك الموقد ، فيعود قلبي يشتعل وحينئذٍ نجعل من قلبينا مشعلاً يلتهب ولا يحترق . فالى اللقاء – شورتي »

*

كتبت آخر كلمة وقد اعترتني هزة وتضعضعت افكاري كأن دماغي قد تحول الى مسحوق دقيق ذرته يد خفية في هاوية تلبدت بدخان . ورفعت عيني الى شورتي فما كدت اصدق عيني لأني رأيت شبحاً غريباً قد حلّ محله كأنه خيال من عالم آخر . رأيت وجهه بلون التراب وعينيه كأنهما من زجاج وقد فارقهما كل ما كان فيهما من نارٍ ونور . وتحركت شفتاه فخيّل اليّ ان الموت واقف بجانبي يخاطبني وسمعته يقول لي : أتلُ عليّ ما كتبت !

فدخل صوته في اذني كصريرِ الأسنان أو كقضقضة العظام . فتلوت عليه الكتاب من اوله ، وما أتيت على آخره حتى سمعته يخاطب نفسه وهو لا يزال واقفاً كالطيف : « هذيان . . . هذيان . . . فهل ترى تفهم هذياني ? بلى تفهمه . ففي قلبها نار

كالتي كانت في قلبي . وهي الوحيدة بين بنات حواء التي تحمل في صدرها ناراً . . . »

ثم وضع يده على كتفي وقال دون ان ينظر اليّ :

ـ اطوِ هذه الرسالة وضعها في غلاف واحفظها في جيبك الى أن يأتي وقتها . سألتك بالله ان تحتفظ بها كما تحتفظ بحدقة عينك . واذا عدت من الحرب سالماً ـ وانت ستعود سالماً ـ فسلمها أباها بيدك ، أسمعت ؟ بيدك لا بيد سواك ، اذ ليس من يصلح رسولاً بيني وبينها إلاّ انت . والآن عد الى فراشك فقد حرمتك قليلاً من النوم . »

قال ذلك واخذ يدي بيده فشعرت كأني اصافح الموت ، ثم استطرد كلامه :

ـ اشكرك يا اخي ، وليحفظك الرب لتبقى طاهر العقل والقلب والجسد . لا تسألني الى اين أذهب ، فانا ذاهب الى المطهر . وداعاً !

وتوجه نحو الباب ففتحه وخرج ، ثم عاد بعد هنيهة وقال لي .

ـ اذا سألكم وكيل المستشفى او الطبيب عن زجاجة

السبيرتو فقولوا له ان « شورتي » جرح اصبعه فوجد زجاجة السبيرتو واحب ان يغسل جرحه فوقعت الزجاجة من يده وتحطمت .

وعاد فخرج وكأن قلبي خرج من صدري معه .

وبقيت برهة كالمأخوذ احاول جمع شتات افكاري فلا اقدر . ثم نظرت الى شمعتي فاذا بها ترمي آخر ذرة من شعاعها المتلاشي . فنفخت عليها نفخة خفيفة وعدت كالسكران ابحث عن سريري بين الاسرة . وغطيط رفاقي لا يزال يتصاعد في فضاء القاعة متوازناً متواصلاً . فخيّل اليّ ان ذلك الغطيط لم يكن إلاّ أنّات مخنوقة خارجة من صدور اناخ عليها الموت بكلكله . وان تلك الاسرّة لم تكن إلاّ لحوداً تضم امواتاً لم يدركوا بعد انهم قد ماتوا ، والعالم يدعوهم « حماة الوطنية ونصراء العدل والحرية . . . »

وارتميت على فراشي منهوكاً وعيناي تجولان في الظلمة فلا تبصران ، وافكاري تسبح في الفضاء فلا تجد ما تستقر عليه .

وبينما انا كذلك اذا بصوت الخفير خارجاً : هالْتْ ! قِف ! مَن القادم !

وعقب ذاك سكتة قصيرة ثم : قف ! واذا لم تقف صبت عليك النار !

ودوى الرصاص ، فاجفلت وانقبض قلبي وتململ جاري على فراشه ، وتمتم بضع كلمات لم افهمها ، ثم انقلب من جانب الى جانب وعاد يغط وعادت سكينة الليل رهيبة مخيفة جليلة .

كلما نظرت الى فراش « شورتي » ورأيته فارغاً مهجوراً هجمت الدموع الى عيني وفاضت قسراً عني .

غير اني اتعزى بان شورتي اليوم في مطهره . فهنيئاً له !

« ١٩١٩ »

فهرست





